Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

د. زهير غزاوي

الإمام جعفر بن محمد الصادق (ع)

بين الحقيقة والمنقول

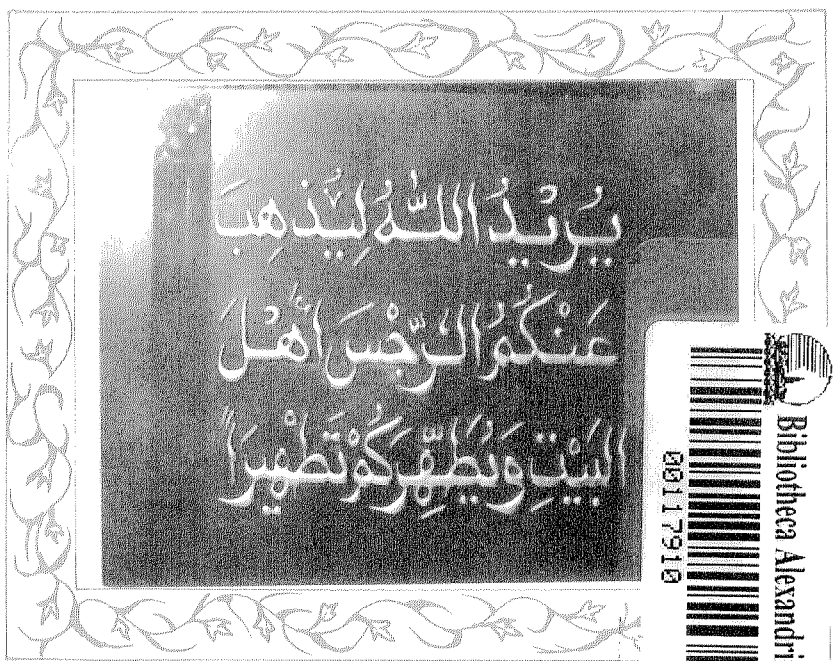

Bibliotheca Alexandrina
0117910

دراسة في جدلية صعود مدرسة أهل البيت

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الإمام جعفر بن محمد (الصادق)
عليه السلام
بين الحقيقة والنفي

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

د. زهير غزاوي

الإمام جعفر بن محمد (الصادق)
عليه السلام
بين الحقيقة والنفي

دراسة في جدلية
صعود مدرسة أهل البيت

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

دمشق ١٩٩٨/١٠٠٠

تنويه

أقدم شكري وتقديري للآنسة إيمان عودة
و خلدون آغا اللذين قاما بتنفيذ هذا الكتاب ..
مع شكر و تقدير للزملاء في مكتبة الأسد بدمشق
مؤيد قسوم ، سناء يوسف ، كامل حسن ، جمانة حسن
و غيداء رفاعي
لما بذلوه من مساعدة قيمة

تصميم الغلاف :
نزار غزاوي

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

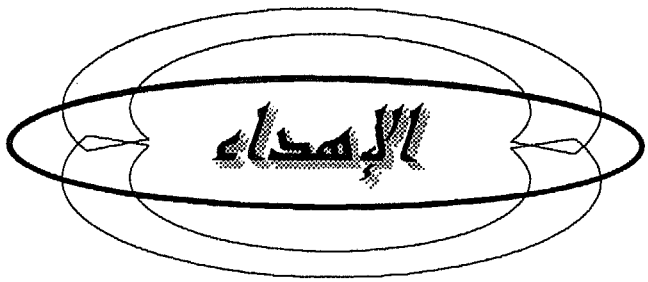

إلى كوكبة من رفقة الشباب

- عبد الرحمن زينو
- محمود علي السعيد
- أحمد ساعد
- يحيى الأسود
- عدنان عبد الرحيم
- عبد الرحمن مرضعة
- زهير جوهري

حسن قويدر
محمد ربيع زينو
سليمان عبد المنعم
أمين السيد
حكمت زين
حسين مراد
محمود دواه (أبو الهنا)

الراحلون :

- أحمد سليم درويش
- محمود شريح
- محمد زكي
- إبراهيم حبيب
- وليد أبو شام

الدكتور انطون بريخان
حنا عيسى
عبد الهادي نبهان
محمود رحمة
أحمد علي عثمان

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

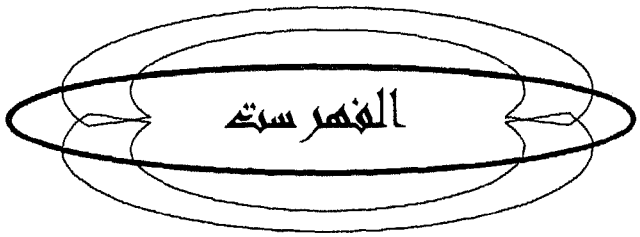

- المقدمة..... ٣

القسم الأول

- مرحلة نضج عصر التدوين في الحضارة الإسلامية..... ١١

مدرسة المدينة المنوّرة..... ١٢

المذهبية الإسلامية والسلطة..... ١٦

جدلية التدوين في صدر الإسلام..... ١٨

محطات بارزة في حياته..... ٢٢

- الإمام الصادق في أصول الكافي..... ٢٩

تمهيد

هشام بن الحكم..... ٣٣

نظرة إلى مضمون الأصول..... ٣٤

العقل..... ٣٤

فضل العلم..... ٣٦

التوحيد وجذور علم الكلام..... ٣٨

الذات والأسماء..... ٤٣

البداء..... ٤٦

الخير والشر والجبر والقدر..... ٤٨

نظرية الإمامة..... ٥٠

الإمامة والغيبة..... ٥٦

فلسفة الدعاء والقضاء..... ٥٩

- مدرسة الإمام الصادق وعلم الكلام في عصره الذهبي..... ٦٤

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ما هو علم الكلام ؟ ٦٧
جدلية الإمامة ٧٥
العصمة و البداء ٨٠
أصالة أفكار أهل البيت الكلامية ٨٢
الهرمسية و الغنوصيّة ٨٣
القسم الثاني
١ـ التيار العلماني التغريبي ـ محمد عابد الجبري نموذجاً..... ٨٩
تمهيد
تحليل المنهج..... ٩١
مناقشة مقولات..... ٩٩
مدرسة الإمام الصادق والهرمسية..... ١٠٨
جدلية التقدم والتخلف في الحضارة العربية الإسلامية..... ١١٣
٢ـ التيار السلفي المصري: مدخل ١١٩
الإمام جعفر والجعفرية: مسألة النفي..... ١٢١
مسألة الفصل..... ١٣٣
نظرية نقد الصحابة..... ١٣٦
٣ـ تيارات الاستشراق..... ١٤٢
التيار اليهودي..... ١٤٧
التيار المسيحي الليبرالي..... ١٥٥
التيار المسيحي الأصولي..... ١٦٢
التيار الماركسي..... ١٧١
٤ـ التيار الاسترادادي الفلسفي: علي سامي النشار ـ أحمد صبحي..... ١٨١
دراسة في المنهج..... ١٨٣

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مدى انطباق المنهج على واقعه ١٨٥
تحليل المنهج ١٨٨
نظرة إلى المصادر ٢٠٤
بين الثيوقراطية والديمقراطية ٢٠٥
خاتمة ومتفرقات ٢١٣
المراجع ٢٢١
صدر للمؤلف ٢٢٦

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة :

ما الذي يمكن إضافته عما كتب عن شخصية حازت على الإجماع في التقدير الإيجابي لدى كل من أدلى برأيه عنها عبر ألف وثلاثمائة عام من الزمن ، ويكتشف الباحث مذهولا أن أشد الناقدين –وفيهم مستشرقون – لم يستطيعوا أن يضيفوا إلا في حدود أنه عاش في رخاء ودعة ومات على فراشه ، نافين احتمال تعرضه للاغتيال من قبل ثاني الحكام العباسين .

ولكن ، هل يمكن تناول وسبر أغوار إنسان ، وصل في درجة التقدير إلى مرتبة القداسة بعقل علمي بحثي بارد ، بعيداً عن التحيز ، معه أو ضده ؟

نرجح استحالة ذلك ، فالباحث في السيرة عندما يتناول شخصية بهذا الحجم ، لا يملك ذاته عن الانحياز ، فهو يتفاعل قبولا ورفضا ، حبا وكراهية ، وتغادره برودة المعادلات الرياضية والوقائع التاريخية الجامدة ، إلى حالة من التوحد الإنساني مع الشخصية ، وتلك حالة مبررة في علم النفس ، ويظل الباحث إنسانا في كل حالاته مهما حاول الموضوعية . وبالنسبة للإمام جعفر بن محمد (الصادق) يبدأ تحيز الباحث مباشرة من خلال قبوله للقب الملتصق بالإسم وأعني (الصادق) فذلك يعني قبوله سلفا بأن هذا الإنسان يحمل ضمنا أعلى القيم الأخلاقية المصنفة ، الصدق، وهي الصفة التي أطلقها عليه أبو جعفر المنصور ، عدوه التاريخي اللدود.

وفي الواقع فإن صفة الصدق لم تفارقه في كل ما كتب عنه ، إما من أعداء أو موالين سواء بسواء ، ولو أن بعضهم ذكر أحيانا الاسم مجردا ثم أضاف التعريف (الصادق) دون أن يدرك أنه يقر ضمنا بإسباغه مديحا بالغ المدى ، لم يحمله إلا إنسان واحد في التاريخ الإسلامي وهو رسول الله محمد (ص) . فالصدق عمليا يرفع حامله إلى مرتبة تتجاوز الطباع الإنسانية المتعارف عليها إلى درجة القداسة والاستشهاد ، فهو يتطابق مع حديث شهير للرسول يصف الصدق في بعض المواقف بأنه أفضل الجهاد ، خاصة إذا كان في مواجهة حاكم طاغية (أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر) .[رياض الصالحين ص١٠٣].

من أهم ميزات هذا الإنسان العظيم (باتفاق الجميع) أنه وضع مرتكزات بنيت عليها الأيديولوجيا الإسلامية وفق مدرسة أهل البيت ، والمفارقة في هذه المسألة تبعا لكونه (الصادق) أن الطرف الآخر جهد، إن معاصرا أو عبر مئات السنين ، ليس في نفي صدقه شخصيا فيما صدر عنه بل في نفي أن ما صدر عنه، وقد تم تسجيله في مئات الكتب ، لم يكن كله صادرا

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

عنه فعلا ، وإنما تزيد عليه تلاميذه ومريدوه ، أو أنهم غالوا فيما نسبوا إليه ، ثم يضيفون أخيرا في سبيل حل هذه الإشكالية الإسلامية المؤرقة ، أن الإمام الصادق تبرأ من الجميع .

فمن هو الإمام الصادق اذن ؟!.

لم يكن الإمام جعفر بن محمد شخصية غامضة أو تتسم بالسرية والإبهام والتكتم – حتى وهو ينادي بالتقية ويصر عليها – كان إنسانا يمارس مهام التدريس والقيادة الواضحة العلنية طوال عمره تحت مراقبة السلطة اللصيقة ، ولعل الميزة الثانية الأبرز في هذا الإنسان الكبير أنه تمكن من الحفاظ على ذاته من الإعدام أو الاغتيال باعتبار معاصرته أكثر الفترات مفصلية في التاريخ الإسلامي ، من مختلف جوانبه السياسية والاجتماعية والعلمية ، فهل يمكن تفسير ذلك إلا (بالعناية الإلهية) بكل ما تحمل هذه الكلمة من معنى ، شئنا ذلك أم رفضنا ؟ فهو أطول الأئمة عمرا ، وهو، وتلك ميزته البارزة الثالثة صاحب المذهب المنسوب إليه (الجعفري) والذي يشكل عدديا ثلث المسلمين بكل تأكيد، شاطرا العالم الإسلامي إلى ضفتين من المنتصف تماما ، معه أو ضده (فكريا) ، ولو أن هذا الإمام حاز على إجماع في الاحترام أو التقدير لم يستطع أن ينال صحابي أو تابعي أو إمام مذهب (من الأربعة أو غيرهم) ، وكلهم لم يتاونوا في التعبير عن المديح والحب والإعجاب ، حتى أوصلوه إلى مرتبة صاحب الكرامات الروحانية العرفانية، وتلك الميزة الرابعة البارزة .

المفارقة الأعجب في شخصية كهذه أنه لم يكن حالة خلافية مثيرة للجدل ، وهو راهنا ليس كذلك بالقطع . هو صديق مقرب لكل الذين عاصروه أو كتبوا عنه في زمانه وفي الراهن وحتى صميم المستقبل .. إنه جعفر بن محمد الصادق وكفى ... الشخصية المتعددة الأوجه والإمكانيات والمواهب ، الرجل الذي لم يحمل شرف بناء مؤسسة التشيع أو مدرسة أهل البيت ، فقد سبقه إلى ذلك الإمام علي بن الحسين (زين العابدين) ، وهو لم يرق إلى سدة الكفاح المسلح في سبيل الحق ولم يقد الجيوش ويقاتل الكفار والناكثين والمارقين والقاسطين ولم يقاتل على تأويل القرآن كما فعل جده الإمام علي بن أبي طالب (رض)، ثم أنه لم يوصف بباقر العلم كما اتسم أبوه محمد الباقر ، حتى أنه لم يدخل سجون السلطة ويتعرض لعذابات الحكام المضنية كما حدث للإمام الجد الحسين أو الامام الابن موسى الكاظم أو الأحفاد جميعا حتى الإمام محمد المهدي المنتظر ، لكن ، وهذه ميزته الخامسة البارزة ، حمل في ذاته شيئا من كل هؤلاء ومن كل هذا ، كان باعتراف الجميع انسانا متفردا متميزا ساميا صادقا ، وإلا لما استحق أن ينسب

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

إليه المذهب في أي حال من الأحوال .

أبداً لا يستطيع دارسو سيرته التخلص من إساره والتوحد معه قبولاً أو رفضاً ، حباً أو كراهية (أو كما تقر المدرسة الفرويدية بالتوحد مع الذين تكرههم وتعاديهم ولكنك تحترمهم وتعجب بهم) هذا التوحد الذي جعل من دراسات النفي حوله من قبل مسلمين ومستشرقين – شهادات مذهلة لهذا الإنسان الإمام بدلاً من أن تنال من شخصيته وأفكاره أو المنسوب إليه . ومن خلال كل هذا التراكم الضخم والعجيب من البحوث يسطع هذا الإنسان الإمام موحداً حوله الجميع في كل الضفاف ، وكم يبدو نبعاً سامقاً بعيداً في القمة العالية ، قريباً في حوافي السفوح الدانية ، سهلاً ممتنعاً ، مصدراً ومرجعاً وفيلسوفاً ومؤسساً ... شيئاً انسانياً بالغ التميز لم يصنّف بمكوناته الشخصية عملياً في التاريخ الإسلامي إلا ثلاثة : رسول الله ، وعلي بن أبي طالب وجعفر بن محمد ، ولو أنه يتميز عن جده الإمام علي بأنه يحوز على الإجماع رغم تأكيده الدائم بأنه مجرد تلميذ صغير لذينك الجدين العظيمين .

الإمام الصادق واضع أسس المدرسة العقلانية في الأيديولوجيا الإسلامية ، فالعقل لايعني الالتزام بمعطيات الحواس والتجريب وحسب ، إنه أشمل من هذا المعنى . لقد (سبق الإمام) مرحلة الترجمة والقراءة من المحفوظات تاريخياً ، وبهذا الاعتبار فلم يكن تلميذاً لمدارس العقلانية اليونانية أو المشرقية الهندية والفارسية والصينية ، فلا يمكن ترجيح توصيفه بدارس متأثر بهذه المدارس لأنه لم يقرأها ، رغم توصيف أصحاب كتب المناقب له بمعرفته للعديد من اللغات . ومن هذا المنطلق لابد لأي باحث في سيرة هذا الإمام من معالجة هذه المسألة بكل ما تستحق من عناية علمية بالاستناد إلى المرحلة التاريخية التي عاشها ومفرزاتها الثقافية ، وفي هذا الإطار تأتي مناقشة علمه الواسع ، أكان كسبيًا أم إلهاميا ، وتلك قضية بالغة الدقة والصعوبة، هي حالة خلافية وشائكة معاً حتى يمكن إصدار حكم قيمة وتبعاً كما فعل بعضهم ، لقد تجاوز هذا الإمام الإنسان عصره فعلاً وخاصة في قضايا علمية لم تكن مطروحة على بساط البحث يومذاك ، فكيف يمكن لإنسان فقيه أن يضع قواعد لعلم الكيمياء وأن يبرز من تلاميذه شخص كجابر بن حيان مثلاً بتخصصه بعلم سمته الرئيسية البحث والتجريب ؟!.. وذاك يضيف ميزة جديدة إلى ما اتصف به ، ولكنها الأشد خروجا عن المألوف نسبة لشخص قاد مرحلة فكرية وسياسية بالغة الدقة لا يتيح له وقت فراغه أنه يدرّس الكيمياء ناهيك أن يعلّمها لغيره ، ومع ذلك فقد ثبت أن مؤسس هذا العلم في الدولة الإسلامية يعترف فيما كتب انه من تلاميذ الصادق ... أليس في ذلك غرابة تثير الأسئلة حول ماهية علم الإمام ، كسبيًا أم الهامياً .؟

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

من أبرز مهام الإمام جعفر بن محمد الصادق أن يروي السنة النبوية الشريفة ممثلة بالحديث المنقول عن رسول الله (ص) ، وربما لا يثير كبير استغراب إذا علم أن٨٢% من الحديث النبوي المتداول في كتب الحديث رويت عن طريق هذا الإمام ، سواء وجدت في كتب مدرسة أهل البيت (الأربعة) ، والتي تعود كل الأحاديث الموجودة فيها إليه ، أو في صحاح السنة المعروفة ، رغم تجاهل معظمها نسبتها إليه ، إلا أن الكثير من أحاديثها موجود في الكتب الأربعة ولكن عن طرق أخرى غيره .

إن تدوين الحديث يعتبر مرحلة تالية لمرحلته تبعا للثوابت التاريخية ، و يتأكد لنا أن الإمام وآبائه الكرام اشتهروا بإملاء الحديث النبوي وتدوينه ، حتى أن ذلك اعتبر في نظر المحدثين السنة منقصة في أسلوبه ، موردين اتهامات له بأنه يعتمد على الكتب ، وكم يبدو ذلك بالغ الغرابة ، أن تعتبر المدونات أقل موثوقيه من النقل الشفهي ، وأن ترفع ذاكرة الأشخاص الرواة وموثوقويتهم فوق الوثائق المدونة نقلا عن الباقر عن زين العابدين عن الحسين عن علي عن رسول الله ، وأن يسقط المحدثون من الاعتبار مصداقية ما يحدث به الإمام الصادق لمجرد أنه ينقل من كتب أملاها آباؤه ، أليس في ذلك استهانة بالوثيقة المكتوبة لم يشهد التاريخ الإنساني لها مثيلا ، أملتها ظروف سمتها الصراع غير المتكافئ مع مدرسة الإمام من قبل علماء دعمتهم السلطات الحاكمة ، حتى بوسائل غير مباشرة ، لمجرد إسقاط هذه المدرسة والقضاء عليها ووصمها بانعدام المصداقية ، لغايات سياسية أصبحت أشهر من أن يشار إليها .

من هنا ننطلق إلى الجانب الأبرز فعلا في شخصية الإمام الصادق ، هذا الجانب الذي حاول عديد من الباحثين طمسها ، وأعني به الجانب القيادي الحركي أو الحزبي لأعداد كبيرة من المسلمين يفترض انهم يرتبطون به ، ليس بولائهم الروحي وحسب ، بل لكونه زعيما لتنظيم بلغ في تبلوره درجة رفيعة في عهد جده زين العابدين واستمر محافظا على طرائقه النضالية بجوانبها المتعددة (اجتماعيا ، ثقافيا ، سياسيا) .

هذا الارتباط ضمن وضع حركي يتجه نحو الإمام شاملا العالم الإسلامي كله مكونا ما أصبح معروفا ومشهورا بالتشيع والشيعة وأنصار أهل البيت وكل المناضلين في سبيل الرضا من آل محمد ، وما يستلزم ذلك من جمع أموال وسريه وخلايا تنظيمية ومرجعيات ووثائق ورسائل ووسائل اتصال وميزانيات تنظيم ونشرات داخلية للتنظيم تتضمن أقوال الإمام وتوجيهاته وأحاديثه ، وما يمليه من أحاديث نبوية ، أو أحاديث عن أبيه وأجداده ، وصولا إلى الإمام علي (رض) وفاطمة الزهراء (رض) .تلك التقنيات المتعلقة بالتنظيم الحركي كان لها (ما في ذلك

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

شك) أن تحفظ تراث أهل البيت الثقافي وتبعثه حيا للمستقبل ، ولولاها لطمس هذا التراث بفعل التحديات المواجهة والتي لم يكن أكبرها ما اشتهر في تلك الأيام أن المسلم كان اسهل عليه أن يقر بأنه زنديق من أن يقول بأنه من أنصار أهل بيت النبي ، وفي ذلك مفارقة من أغرب ما شهده التاريخ الإسلامي ضمن مفارقاته العديدة .

لقد تمكن الإمام الصادق من حفظ تراث أهل البيت بحيث أن الكثير المتسم بالأهمية لم يضف إليه في مرحلة الأئمة الستة التالين – رغم أن إضافات قد تمت – لكن الإمام السادس أتم بناء الإيديولوجيا الإسلامية مكتوبة ذات أصول واسس تنسجم مع طبيعة المرحلة الموسومة بمنتصف القرن الثاني الهجري ... مرحلة الترجمة والكتابة والتلاقح الحضاري ووضع الأصول الفقهية والتفسير وبدء تدوين التاريخ وقواعد اللغة الخ .... تلك المرحلة التي كان الإمام قطبها بلا منازع (باعتراف الجميع) وهكذا نضيف ميزة أخرى إلى جعفر بن محمد ، ألا يستحق ذلك أن يثير حقا عشرات الأسئلة والترجيحات والضجيج والاستغراب والجدل والنفي والاتهام وشهوة البحث عن الحقيقة ، (وهو ما استحق أن يكون موضوعا لهذا الكتاب) ومع ذلك فقد خرج الإمام الصادق من كل تلك المعمعة متمتعا بميزة الإجماع على الاحترام والتقدير والثناء وهو ما لم تحظ به قط شخصية تاريخية كبيرة .

لقد عبر الزمن منذ رحيل الإمام ثلاثة عشر قرنا ، وفيها قام الكثيرون بالكتابة عنه ومنه كتابات تنوس بين قطبي النفي والمغالاة ، وبينهما محاولات البحث عن الحقيقة ، وللأمانة فلا مجال لانكار أن الباحثين من أتباع مدرسة آل البيت ظلوا الأشد دأبا في البحث عن هذه الحقيقة ، فلم يكن من ناقد موضوعي أكثر منهم حرصا على معرفة الصحيح من المكذوب مما نقل عن الإمام الصادق ، حتى أنهم رفضوا من الكافي على سبيل المثال ما يزيد على أربعة آلاف حديث، وهذا ما لم يقم به غيرهم من الأطراف الأخرى بعيد الانتهاء من تدوين الحديث النبوي.

مدرسة النفي في دراسة الإمام تشتمل عمليا كل ما كتب عنه من غير أتباع مذهبه ، وكما سوف نرى ، فإن لكل طرف طريقته في اعتماد نهج النفي ، بحيث تبدو أبحاثهم ، ببساطة ، مجرد محاولات للتضليل اكثر منها أبحاثا علمية هدفها الوصول إلى الحقيقة . وفي هذا الكتاب سوف نحاول عرض بعض المعاصر منها فقط ، ذلك أن المعاصر عمليا تستند إلى النفي (الماضي) لا يحيد عنه رغم مقاربته للحداثة ، بل أنه ربما بدا حالة مذهبية فيها الكثير من التعصب المغلف بالمديح المفرط لشخصية الإمام ، لكنه في جوهره سعى لفصل الصادق عن أتباعه ومذهبه ومدرسته وتركه نقطة مفصولة عن محيطها ، مجرد رجل صالح ورع يدرس

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفقه في المدينة المنورة ، وليس قائدا لنهج أو تنظيم يضم أتباعا ومريدين قـــاتلوا دفاعـــا عـــن معتقداتهم حتى الاستشهاد ، إن في حياة الإمام أو أولاده أو في ما تلا ذلك من زمن ، حتى العصر الحديث .

أما الغلو فلم يتبد في كتب المناقب وحسب ، ذلك أن الظروف الموضوعية القاســية التـــي أحاطت بالباحثين المؤيدين لمذهب آل البيت في الماضي ، والتي قدر لها أن تستمر حتى الراهـــن في ظل موازين القوى (بين أغلبية وأقلية) جعلت من البحوث المؤيدة متســـمة أحيانـــا ببعـــض التساؤل أو التعاطف المفرط إلى درجة التوحد بالشخصية المدروسة ، خاصة في مســـألة قبـــول بعض النصوص التي يجدر التحفظ حيالها أو نقدها على أقل تقدير. نتج هذا التساؤل فـــي الواقـــع بسبب وجود المؤسسة الشيعية في حالة دفاع عن النفس في مجال النزال الفكري المحتدم تاريخيـــا وراهنا وربما مستقبلا إلى زمن ما ، والواقع يقرر أن هذه المؤسسة سجلت انتصارات لا تنكر في هذا النزال ووصلت إلى مواقع جديدة ويتوقع أن تصل إلى مواقع أخرى أكثر أهمية .. وفي هـــذا المجال تبدو شخصية الإمام الصادق بالذات (وليس الإمام علي (رض)) ، من أبرز الأســـلحة المستخدمة ، فهو الإمام وليس الصحابي وما يحيط بالصحابة من قداسة فرضها الصراع ذاتـــه ، لذلك كانت سيرته والاستقطاب الذي تمتع به واستحقه ، من العناصر الأبرز في بلورة التشـــيع ، ذلك أن الخلاف مع الإمام لا يدور فيه مطلقا ، انه يتركز حوله ، ليـــس الخـــلاف معـــه أبـــدا، الخلاف مع بعض المنقول عنه وصحته ، وفي ذلك ما فيه من دوافع للبحث والتقصي .

وهكذا... وضع فكر الإمام كله أمام الأنظار الناقدة ، وجرى البحث في الأغنيـــة وليـــس المغني ، تماما كما يجب أن تسير الأمور بطبيعتها ، وظل المغني بمنأى عن الصـــراع محتفظـــا بقداسته ومصداقيته التي تم الإجماع عليها ، ولعل هذا بحد ذاته أبرز انتصار حققه الإمـــام بعـــد رحيله عن هذا العالم ، انتصاره بخلوده كمبدع مفكر ليس حوله من خلاف إلا على صحة نسبة ما نقل عنه إليه ، وفي اعتقادي أن الزمن سيتكفل ، والأمر هكذا ، بوصوله مـــن خـــلال مريديـــه وأنصار مدرسة أهل البيت ،إلى إثبات ما يجب إثباته مع تقدم البحث العلمي خلال مراحل زمنيـــة لن تطول ، وربما جاء هذا الكتاب محاولة من ضمن محاولات للوصول إلى ذاك الاثبات.

بين قطبي النفي والحقيقة تنوس كل الدراسات التي كتبت عن الصادق ، أما مـــاذا تعنـــي الحقيقة فيما نقل عنه وما كان عليه فعلا ، فذلك ما يعمل فيه العقل ومرارة المنطـــق الصـــوري ومدى صدق الوثائق المتاحة بين أيدي الباحثين . الإمام لم يترك كتابا بخطه ، لقـــد أملـــى علـــى تلاميذه وهم كثر إلى درجة أن بعضهم (وهو ما أثبته المصادر) يتحدث عن أربعة آلاف كلـــهم

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يقول حدثني جعفر بن محمد ، وفي حياته طبعا ، فإذا أمكن إحصاء آلاف أربعة في ذاك الزمن البعيد وظروفه الصعبة ، فهل نتصور أن الإمام كان المدرس الأوحد في أكبر جامعة في التاريخ، إذا أخذنا بعين الاعتبار النسبة والتناسب بين عدد السكان في الماضي والحاضر .

لابد لأي باحث في سيرة الصادق إلا أن يلتفت بحده إلى مسألة نشوء المذاهب الإسلامية ، تلك الطرائق في الاجتهاد التي كان لها أن تضع أسس الإيديولوجيا الإسلامية بكل جوانبها ، كان زمنه بداية إرهاصات مذهبين هامين (المالكية والحنفية) ثم تلاه المذهبان الآخران (الشافعية والحنبلية) وكان هو قد أصبح قطب عصره عندما لم يكن أيا من هذه المذاهب قد ظهر إلى العلن وبدا التشيع وأفكاره في فترة زمنية ما محور الحركة الفكرية ، خاصة في بداية الدولة العباسية حتى رحيل الإمام عام ١٤٨ هـ بما يقارب الخمسة عشر عاما ، بينما لم يكن الإعلان عن المالكية والحنفية قد أنجز بعد .

هناك جانب من التعسف واللاعلمية تم بواسطتها التعامل مع سيرة جعفر بن محمد ، وكان بعضها مثيرا للاستفزاز ليس بسبب تعسفها وحسب بل لانهم نسجوا في بحوثهم شرنقة من شعارات وعناوين عريضة حول الحرص على الوحدة الإسلامية وقداسة جميع الصحابة وتابعيهم وتابعي تابعيهم بإحسان ، بحيث بدت تلك البحوث حالة عاطفية شعارائية لم ترق إلى العلمية بأي حال من الأحوال .

هذه الإشكاليات الهامة لابد أن تقود إلى تساؤل مشروع عن ماهية البحث العلمي في سير الشخصيات الإسلامية في إطار الإيديولوجيا ، وبما انه سؤال تصعب الإجابة عليه بما يكفي للوصول إلى الحقيقة ، فلا بد من الإقرار الأخير بأن كل الدراسات في السير لايمكن التعامل معها إلا بحذر وسعة إطلاع والاحتكام إلى العقلانية ، واخيرا بذل الجهد الممكن لمحاولة التزام الحياد العلمي .

لكن الإمام الصادق سلام الله عليه كان مصدرا لكل نزعات الغلو في فرق التشيع في الإسلام ، بمعنى أن كل ما صدر عنها نسب إليه ، وإذا نظرنا إلى بعض تلك المصادر ، التي لا يمكن بالقطع نسبتها إليه ، وصلنا إلى نتيجة ربما ترضي أولئك الذين يشككون بكل ماصدر عنه فعلا ، ولكنها لا ترضى الحقيقة . وهكذا يبدو الوصول إلى كنه شخصية عظيمة كالإمام الصادق أمرا شائكا ودربا مليئا بالأشواك ليس أبسطها الاتهام بالتحيز أو النفي ، لكن ذلك لا يمنع ابدا من السير في تلك الدرب الشاقة ، بل لعله يحرض الإنسان الحقيقي على خوض غمارها .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

القسم الأول

الحقيقة

١- مرحلة نضج التدوين في الحضارة الإسلامية .

٢- الإمام الصادق في أصول الكافي .

٣- العصر الذهبي لعلم الكلام الإسلامي .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مرحلة
نضج عصر التدوين في الحضارة الإسلامية

يختلف المؤرخون العرب – من ضمن الكثير الذين يختلفون فيه – حول بدء مرحلة التدوين في الحضارة العربية الإسلامية . وعادة ما يقصد بذلك أن يحدد الزمن الذي بدأ فيه العلماء والمختصون (التدوين) في النواحي المختلفة من علوم الدين في الكتابة ، انتقالا من مرحلة اعتمادهم على مجرد الحفظ ونقل هذه العلوم بالمشافهة أو الحديث المباشر إلى حلقات التعلم .

وإذا اعتمدنا معنى التدوين بالرأي القائل أن الحديث والفقه والتفسير تم تدوينها ممزوجة بآراء المدونين ، بما يعني إعادة بناء الموروث الثقافي بالشكل الذي يجعل منه تراثا ، أي اطارا مرجعيا لنظرة العربي إلى الأشياء ، إلى الكون والإنسان والمجتمع والتاريخ ، فإن أحد المؤرخين وهو الذهبي اعتبر بداية هذا العصر عام ١٤٣هـ . لكن نصوصا أخرى وردت في المراجع العربية ، دون قصد تحديد هذه المرحلة ، أقرت بأن التدوين بدأ قبل ذلك بزمن بعيد ، خاصة لدى مدرسة أهل البيت ،[١] وفي حياة رسول الله (ص) من قبل الإمام علي بن أبي طالب (رض) ، وهو ما سنحاول إضاءته عبر دراسة حياة الإمام الصادق (رض) حفيد الإمام علي ، والذي يحتل التعداد السادس في الأئمة الاثنى عشر لدى الشيعة الإمامية .

ولد الإمام جعفر بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب عام ٨٣ هـ في المدينة المنورة ، كانت أمه فاطمة أم فروه بنت القاسم بن أبي بكر الصديق ويعتبر جده القاسم من كبار الفقهاء ، وأحد التابعين السبعة[٢] الذين اعتبر بعضهم أن موافقتهم أو إجماعهم على أي حديث أو رأي بمثابة اليقين الديني الذي لا يرقى إليه شك . يختلف في سنة ولادته بين من أرخوا لحياته فقد أوردها بعضهم في سنة ٨٠ هـ للهجرة ، وربما كان ذلك هو الأصح فقد اعتبر الإمام الصادق من أطول الأئمة عمرا ، ذلك أن أولاده وأحفاده وصولا إلى الإمام محمد بن الحسن العسكري (المهدي) (رض) الذي اختفى وعمره لم يتجاوز السادسة غادروا الدنيا شبابا .

يؤكد الباحثون الإسلاميون في دراستهم لسيرة الإمام الصادق على أنه رمز المذهب الشيعي الذي يسمى عادة باسمه (المذهب الجعفري) .هذا التخصيص ، مع علمهم بأنه مسبوق بخمسة أئمة كبار وضعوا أسس الفقه الإسلامي بما في ذلك والده وأستاذه الإمام محمد بن علي بن الحسين الباقر (رض) ، يأتي من طبيعة العصر والمرحلة التي عاش فيها الإمام من ناحيتين

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

رئيستين : **أولاهما:** التغيرات الجذرية سياسيا واجتماعيا .

وثانيهما: التقدم الكبير في النواحي العلمية المختلفة خاصة تصنيف الكتب والترجمة والتلاقح الحضاري مع شعوب العالم القديم .

تبرز أهمية الصادق وشهرته التي قاربت مكانة الإمام علي بن أبي طالب (رض) ذاته، من اعتراف لمعاصريه ومن تلاهم من الباحثين بأنه قطب عصره ، بما في ذلك اتصال أول مؤسسين لمذاهب إسلامية به واعترافهما باستذته لهما [٣] ، وأعني الإمام مالك بن أنس والإمام أبا حنيفة النعمان (رض) من هذا الإيجاز سوف نتطرق أساسا إلى الناحية العلمية المتعلقة بتدوين العلوم الدينية ، وذلك يستلزم حكما التطرق إلى الإطار السياسي الاجتماعي كمؤطر لهذه الناحية لا ينفصل عنها ، ذلك أن بروز الإمام كمؤسس لجامعة إسلامية في المدينة المنورة اقتضى – بحكم الصراع السياسي الاجتماعي – أن يواجه بردود فعل ، ان بتوجيه من السلطات الحاكمة ، أو بطبيعة نشوء المذاهب الإسلامية ذاتها ، واختلافها (بالدرجة) ، كرد فعل أيضا على تنوع الاجتهاد بين العلماء ، تبعا للاختلاف حول مصداقية مانقل عن الرسول الكريم (ص) من أحاديث وسلوك يومي كان لها أن تشكل مّا اصطلح عليه بالسنة النبوية .

مدرسة المدينة المنورة :

بسبب من احتدام الصراع السياسي في الشمال – العراق سوريا – نعمت مدينة الرسول بحالة من الهدوء مما مكنها من تكوين مركز هادئ للدراسة وبلورة مرجعية إسلامية شاملة . عاش الإمام الصادق ومن قبله أبوه وجده في هذه المدينة ، وفيها أيضا عاش الكثير من أئمة المحدثين والمفسرين ، وإليها كان يرحل طلاب العلم للقائهم والأخذ عنهم ، واليها رحل الإمام أبو حنيفة للقاء الإمام وعايشه سنتين كاملتين أخذ عنه فيهما الكثير قبل أن يعود إلى العراق ، وفيها عاش ودرس مالك بن أنس واشتهر فيما بعد كصاحب أحد اكبر المذاهب الإسلامية .

وإذا علمنا أن الإمامين (الشافعي وأحمد بن حنبل) كانا تلميذين لأبي حنيفة ومالك ، يواجهنا سؤال مشروع : لماذا انفصل الجميع عن الأستاذ جعفر بن محمد في بعض نواحي الاجتهاد ، أو الوصول إلى نتائج تخالفه ، وعلى رأسها رفضهم اعتبار (الإمامة) أحد أركان الإسلام الأساسية أو الركن الخامس كما يقولون ، مما حقق فرزا حاسما في الدين الإسلامي بين سنة وشيعة ؟

لقد حاول باحثون محدثون الإجابة عن هذا السؤال المفصلي من خلال دراسة حياة الإمام الصادق ، وخاصة التيارات المصرية في البحث (أبو زهرة – النشار – أحمد صبحي [٤] ..الخ)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ليصلوا إلى نتائج أبرزها أن اللاحقين لم ينفصلوا ، وأن ما هو موجود لديهم موجود لدى الإمـــام جعفر الصادق، وأن المذهب الشيعي لم يتبلور إلا في مرحلة الغيبة للإمام المهدي (الثاني عشـر) وبهذه النتيجة قرر هؤلاء الباحثون الفصل التام بين الأئمة ومذهبهم أو بينهم وبين أتباعهم .

هذه النتائج تتسم بطابع القفز فوق حقائق معطيات تاريخية وواقع راهن ، وقد أجاب عليـها سابقا كتاب كثر من أبرزهم (ابن سعد) في طبقاته (والذهبي) في تاريخـــه(وابـن النديـم) فـي الفهرست وغيرهم ، ليثبتوا أن الإمام الصادق دون القواعد الأساســية للمذهــب فــي الأصــول الأربعمائة التي آثرت عنه والتي أخذ عنها الكافي والمفيد والطوسي والقمي وصولا إلـى محمـد الحر العاملي في وسائل الشيعة والذي يعتبر من المتأخرين .

ترجح الوقائع أهمية الجانب السياسي في نشوء المذاهب الإسلامية الأربعة المخالفة لمذهب الصادق فالخلافتين الأموية والعباسية لم تألُ جهدا في محاصرة مدرسة أهل البيت التـــي قـادت جامعة المدينة المنورة بدءا من استقرار الإمام علي بن الحسين (زين العابدين) فيما بعيد مجـزرة كربلاء عام ٦١ هـ . لقد تمكن الإمام زين العابدين ببراعة من خلق حالة من الاستقطاب حولـه مستفيدا إلى أبعد الحدود من كربلاء واستشهاد الإمام الحسين ، وتجمع المصادر التاريخية على أنه وضع سنة البكاء على أبيه الشهيد [٥] بحيث أصبحت سمة تشمل العالم الإسلامي بكامله. وبما أنـه لم يتدخل في أي شأن سياسي فقد أحرج السلطة الأموية التي لم تجد ما تأخذه عليـــه لتصفيتـه ، ببروزه كزعيم ديني ومرجعية تستحوذ على الاحترام والثقة والمحبة ، ولعل قصة مديح الشـــاعر الفرزدق له في قصيدته المشهورة التي لم يشكك بها أحد ، عندما حج هشام بن عبد الملك ، والتي رويت في حلية الأولياء لأبي نعيم الأصفهاني لأكبر دليل على ذلك [٦] علما أن المصادر الشـيعية كلها ترويها ، وهي موجودة في ديوان الشاعر حيث يقول فيها :

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته والبيت يعرفه والحل والحرم

وتروي المصادر أنه تمكن من حقن دماء كثير من أهل المدينة المنورة بعيد وقعة الحـــرة في زمن يزيد بن معاوية ، عندما تقدم وبايع قائد الجيش رغم أنه لم يطلب منه ذلـك ، ممـا أدى إلى مبايعة الآخرين (الذين فضلوا يومها الموت على المبايعة)، فاقتدوا بـــه وانســحب الجيـش الغازي لتسجل له خطوة كبيرة نحو ترسيخ زعامته أو مرجعيته .

أما الإمام (الباقر) فقد تابع النهج العلمي ذاته بالمكانة ذاتـــها .وعندمـا سـعت السـلطة لاستفزازه باتهامه بالهجوم على الخليفتين الأول والثاني(أبو بكر وعمر) (ر ض) لـم تسـتطع أن تسجل عليه حتى إثبات هذا الاتهام ، ذلك أنه صاهر الخليفة الأول بزواج ابنه لابنة القاسم بن أبـي

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بكر فلم يعد ممكنا استغلال هذا الجانب من طوق الحصار.

لكن عصر الصادق كان مختلفا إلى ابعد الحدود، فقد تولى الإمامة عام ١١٤هـ ، وعمره ٣٤ عاما في نهاية زمن هشام بن عبد الملك ، آخر الأقوياء من أبناء عبد الملك بن مروان ثم بدأت الدولة بالانحدار مع سلسلة من الأمراء كالوليد بن يزيد ويزيد بن الوليد وإبراهيم بن الوليد ...وأخيرا مروان بن محمد (الحمار) عام ١٣٢هـ .

كان الصادق رمز مرحلة الانتقال بين عصرين سياسيين من أزهى عصور الحضارة الإسلامية ، تميزت بالصخب والحروب الأهلية وتشتت الولاءات وصعود نجم أهل بيت النبي ليصبحوا مع أولاد عمومتهم العباسين مركز الاستقطاب السياسي . وفي الوقت ذاته كانت الدولة الإسلامية تترسخ كمؤسسة ، وتستفيد من معطيات الحضارات الكبيرة المحيطة بها ودليل هذا الاستقطاب أن الخوارج اتصلوا به رغم عدائهم التقليدي للإمام علي بن أبي طالب [٧] ، ومن قبل ثابروا على الاتصال بعبد الله بن عباس (ر ض) ، ليستمر أهل البيت على كونهم مرجعية دينية راسخة في خضم بروز عشرات الآراء والمذاهب الإسلامية .

ومن الثابت أن الخوارج اجتاحوا الحجاز في عهده وتمكنوا من الاستيلاء على مكة والمدينة عام ١١٦هـ .

يؤكد المؤرخون حياديته السياسية ، غالبا ما نجد لدى المحدثين من الباحثين الإسلاميين ومنهم المستشرقون ، أن الصادق عاش حياة هادئة لم تقاطعها مشكلات ذات بال رغم أحاديثه المعارضة للأنظمة القائمة ، لكن معطيات وثائق المرحلة ترجح أنه كان مركز استقطاب شامل وأنه بالذات أول من قام ، بأسلوب علمي ، بتشكيل تجمع من الموالين لأهل البيت على امتداد العالم الإسلامي ، وعبر في حديثه عنهم بلفظ (شيعي) وليس من شك في أنها حالة تنظيمية ترقى إلى مستوى التنظيم المؤدلج بنظرية الإمامة وأحقية الأئمة في خلافة الرسول سياسيا ، لكنه رغم ذلك رفض تولي القيادة للثورة المشتعلة عندما عرضت عليه ، مثيرا بذلك حالة من الجدل بين المؤرخين .

" حكى المسعودي أن أبا سلمة الخلال (حفص بن سليمان الهمذاني ، داعية العباسية الأول) حين بلغه مقتل إبراهيم الإمام (العباسي قائد الثورة وشقيق السفاح والمنصور) أضمر الرجوع إلى آل بيت أبي طالب فبعث بكتابين مع رسول إلى المدينة ، أحدهما إلى جعفر بن محمد والآخر إلى عبد الله بن الحسن بن الحسين فلما وصل الرسول إلى جعفر أعلمه أنه رسول أبي سلمة ودفع إليه كتابه ليلا فقال جعفر :

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ما أنا وأبو سلمة ، وأبو سلمة ليس من شيعتي انه شيعة لغيري فقال له الرسول : أنى رسول فتقرأ كتابه وتجيبه بما رأيت ، فدعا جعفر بسراج ثم أخذ الكتاب فأحرقه وقال : عرف صاحبك بما رأيت ثم تمثل بقول الكميت :

أيا موقدا نارا لغيرك ضوؤها ياحاطبا في غير حبلك تحطب [٨]

وورد في (الملل والنحل) أنه قال : أنه ليس من شيعتي ولا الزمان زماني .

والواضح هنا أن الصادق كان على علم دقيق ليستطيع التمييز بين من يعملون له أو لغيره على امتداد العالم الإسلامي في وضع يتسم بالفوضى والثورة ، وكان يحصل باستمرار على الدعم المادي منهم ، وتجبى له أموال الخمس ، ويقاوم المندسين في صفوفهم ، والغلاة ، ويصدر فتاوى البراءة منهم كفتواه في أبي الخطاب مثلا .

لقد بهر معاصريه من المعارضين للسلطة الأموية فعادوا إليه كمرجع أخير لتولي القيادة وكان رفضه المحير هو الذي أتاح للعباس السفاح أن يتولى السلطة في بداية العصر العباسي .

ليس من شك في أن ثورة العالم الإسلامي على الأمويين قامت تحت شعارات الرضا من آل محمد ، وبسبب من نقص وسائل الاتصال فلم يكن المقاتلون يميزون بين رموز القيادة وبهذا تمكن العباسيون من الوصول إلى السلطة مستغلين وضعا أتاحه لهم تنازل الإمام جعفر عن تلك القيادة لأسباب يختلف المؤرخون حولها ، ومعروف أن بني هاشم بطرفيهم العلوي والعباسي عقدوا عدة اجتماعات سرية للتداول في معطيات المرحلة المقبلة تمكن سرد أحدها كما ورد في مقاتل الطالبين لأبي الفرج الأصفهاني بتلخيص من الصفحات(٢٠٦-٢٥٦)[١٠] .

في العام ١٢٥ هـ عقد الهاشميون اجتماعا حضره الصادق وعبد الله بن الحسن بن الحسين وابنه محمد (النفس الذكية) وآخرون عن العلويين وكان السفاح والمنصور أخوه وآخرون عن الجانب العباسي طلب عبد الله بن الحسن من الحضور مبايعة ابنه محمد لقيادة المرحلة المقبلة باعتباره المهدي المنتظر [٩] ، فقبل أبو جعفر المنصور المبايعة عن العباسين بينما رفض الصادق ، وعندما غضب عبد الله متهما الإمام الصادق بالغيرة من محمد رد الإمام عليه قائلا : هذا الأمر ليس لك ولا إلى ابنيك من بعدك ، إنما هو لهذا أشار إلى السفاح ثم لهذا وأشار إلى المنصور ثم لولده من بعده ولا يزال فيهم حتى يؤمروا الصبيان ويشاوروا النساء ، فقال عبد الله : يا جعفر ما أطلعك الله على غيبة وما قلت هذا إلا حسدا لابني ، فقال الصادق : لا والله ما حسدت ابنك ، وان هذا وأشار إلى أبي جعفر يقتله على أحجار الزيت ثم يقتل أخاه من بعده ، وبما أن ما قاله الصادق قد حدث بحذافيره فقد أطلق المنصورعلى الإمام جعفر

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لقب الصادق "[١٠]

هذه القصة لم يرفضها أي من الباحثين المسلمين المحدثين أو يشكك بها وقبلت كما هي ، وانصب التشكيك على موضوع هامشي يتعلق بما يطلقه الشيعة عن الأئمة رضوان الله عليهم بأنهم معصومون وملهمون ، وذلك من زاوية رفض هؤلاء الباحثين الإلهام والعصمة للإمام الصادق واعتبار ما فاه به من الاجتماع مجرد بعد نظر سياسي ، والحقيقة أن محضر الاجتماع هذا وقد قبلته الأطراف الإسلاميه ، يعطي الصادق صفات لم يحملها أي من معاصريه ويؤكد مرجعتيه واحترامه الشديدين من قبل الجميع ، وتظل مناقشة الإلهام والعصمة لدى مذهب التشيع المتعلقة بمسألة الإمامة كركن من أركان الإسلام ، خارج إطار هذا البحث .

هل كانت حيادية الصادق من جملة أهدافه للحفاظ على حياته ، بالتأكيد لم توقف الحيادية الحصار أو الرقابة ، وكانت هذه الرقابة أشد صرامة في زمن المنصور ثاني الخلفاء العباسين بعيد وفاة السفاح الذي لم يتول سوى أربع سنوات ، تماما كما تنبأ الصادق لهذا أحاط أبو جعفر المنصور مقر الإمام بسياج من الرقابة لم يكن في زمن السفاح ذاك الذي عامله بعناية بالغة ، ودعاه إلى العراق وسمح له بتجديد قبر الإمام علي في النجف في تلك الزيارة تمكن الصادق من عقد مناظرات بالغة الأهمية مع الفرق الإسلامية وغير الإسلامية وحتى مع الملحدين [١١] .

أما المنصور فقد منعه من لقاء الناس خوفا من الفتنة به ، ولكنه ظل يستدعيه إلى بغداد من حين لآخر للتحقيق معه فيما نسب إليه في تقارير المخبرين الكثر من عملائه حول الإمام .

هذه المرحلة الصاخبة بين عهدين أراد كلاهما التعتيم على مدرسة أهل البيت في المدينة المنورة عبرها الصادق بكفاءة متناهية ، لكنها في ذات الوقت تقيم على أنها مرحلة بروز المذاهب الإسلامية وبدء انتشار التدوين على نطاق واسع أو بالأحرى هي مرحلة نضج حضاري إسلامي ليس له مثيل .

المذهبية الإسلامية والسلطة :

بإيجاز ، وتحت هذا العنوان يمكن معالجة بروز المذهبين الأكبر في تيار السنة للإمامين مالك وأبي حنيفة (رض) فباستعراض الملامح السياسية للمرحلة يجدر دراسة مدى التأثير الحاصل تبعا لذلك على نشوء المذهبية ، بما في ذلك مدى تأثير الإمام الصادق ذاته بالتابعين الفقهاء والمجتهدين والفلاسفة ودورهم في علمه وحركته المذهبية كرمز للتشيع وصلة ذلك بالتدوين .

يردد المسلمون مثلا شهيرا يقول : لا يفتى ومالك في المدينة ، وبما أن الإمام مالك

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وجعفر بن محمد (الصادق) متلازمان في ذات الموضع ، ويتميز الصادق بكل ما ذكرنا بما في ذلك اعتراف الإمام مالك له بالإعلامية ، تبعاً لما ورد في المراجع المتعددة التي درست تلك المرحلة التاريخية ، يكتشف دور السلطة السياسية في بعض وسائلها لمواجهة قطب مدرسة المدينة المنورة ، فقد جرى وضع مالك بن أنس في مواجهة الصادق كأسلوب معروف وقديم .

إن هذا لايعني مطلقا التشكيك بمصداقية الإمام مالك أو نزاهته بمقدار ما يقصد به السعي الدائم لكثير من التابعين ومنهم مالك لترك مسافة بينهم وبين الصادق توخياً لابراز حالة من الاستقلالية في الاجتهاد من جهة ، والابتعاد عن القمع المباشر وغير المباشر للسلطة الأموية في دمشق ، بل لعل المراجع التي درست جامعة المدينة المنورة ، من باحثين لايمكن اتهامهم بالتشيع أكدت أن الإمام مالك انحاز في بعض الفترات للأمويين انحيازاً واضحًا [١٢] .

أما الإمام أبو حنيفة فقد شكل حالة خاصة لمدرسة العراق الفقهية التي اتسمت بغلبة الرأي والقياس لمواجهة المستجدات في الحياة الإسلامية ، مما جعله تبعاً لذلك على النقيض للإمام الصادق حتى بعد تلمذته على يديه من سنتين من عمره أثر عنه بعدهما القول : لولا السنتان لهلك النعمان [١٣] فالصادق الملتزم بمدرسة أهل البيت وأبحاثها الفقهية وبإصراره على أن لا اجتهاد مع وجود النص ، ولأن النصوص متوفرة بشمولية من قرآن كريم وأحاديث نبوية يرويها عن آبائه عن الرسول (ص) ولأن الفترة الزمنية لم تكن متباعدة بينه وبين المنبع ، فقد رفض الصادق أسلوب أبي حنيفة بحسم .

ولعل الحوار المشهور الذي دار بينهما واعتمده معظم المؤرخين مثبت ذلك " ناظر الصادق أبا حنيفة مسألة حول الرأي في الدين فقال لأبي حنيفة : أيهما أعظم قتل النفس أو الزنا قال : قتل النفس . قال فان الله قد قبل في قتل النفس شاهدين ولم يقبل في الزنا إلا أربعة ، ثم سأله : أيهما اعظم ، الصلاة أم الصوم قال : الصلاة ، قال : فما بال الحائض تقضي الصوم ولاتقضي الصلاة فكيف يقوم لك قياس ، فاتق الله ولا تقس ...." [١٤]

ورغم أن أبا حنيفة يشهد بأنه لم ير أفقه من جعفر بن محمد [١٥] فقد رضخ للسلطة العباسية وخاصة لأبي جعفر المنصور الذي استخدمه في جلسات الحوار التي قصد بها إحراج الصادق كغطاء للتحقيق معه عندما كان يستدعيه بعد كل تقرير مرفوع ضده ، وقد سجلت المراجع بعض هذا الحوار وخاصة الذي عرف بالمسائل الأربعين التي أجاب عنها الصادق مورداً الأمثلة التي شملت كل الآراء الفقهية المشهورة في زمنه مما هو مثبت في المراجع[١٦] وإذا نظرنا إلى سيرة حياة أبي حنيفة النعمان ، وهو في عمر الصادق ، وتوفي بعده بسنتين .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

(٨٠-١٥٠هـ)، وجدنا أنه رغم ذلك الرضوخ اتهم من قبل المنصور بممالأة المعارضة السياسية التي تمثلت بخروج إبراهيم بن عبد الله بن الحسن بن علي سنة ١٥٠ هـ على المنصور وهزيمته [١٧] وهذا يعني (إن ثبت) أن هناك صحوة سياسية متأخرة ولكن هذه الصحوة لم يتـــح لها أن تبرز في مذهبه ، وربما عتم عليها علما بأن الإمام أبي حنيفة لم يترك مدونات تحمل اسمه وأن الذي كتب المذهب هو تلميذه المشهور (أبو يوسف) ذاك الفقيه الأشهر القاطن ببغداد والذي وضع نفسه بتصرف الخلفاء [١٨] وصار قاضي بغداد في عهد هارون الرشيد مما أدى إلى انتشـــار المذهب الحنفي كمذهب للسلطة الحاكمة .

جدلية التدوين أو التأليف في صدر الإسلام :

ورد التعبير عن (إصدار الكتب) في مراجع التاريخ الإسلامي بمفردات متعددة كان لـــها أن تثير الجدل حول مضامنيها هناك (التأليف) و (التصنيف) و (التدوين) و (إملاء الكتاب) وغيرها ، وتلك مصطلحات تؤدي أحيانا مدلولات متشابهة وأحيانا تتعارض تبعا لمزاج البـــاحثين في تناولهم لقضايا الخلاف ، لكن خطورة مسألة كهذه تنبع في الأصل من ارتباطها بفرعين هامين وهما :**الأول:** تدوين الحديث النبوي وتوثيقه حتى منبعه المتصل بالرسول (ص) **والثاني:** تفسـير القرآن الكريم لارتباط هذا التفسير بالحديث بوثاقه لا تنفصل ، فكل تفسير أو تأويل لآية قرآنيـة – فيما عدا المعنى اللغوي – يرجع غالبا إلى رأي حدث به النبي (ص) بما في ذلك أسباب النزول و التعميم ، ولهذا السبب دخل تدوين السيرة النبوية في السنة الإسلامية ، لأنها تعرف بكونها حديـث النبي أو سلوكه أو إقراره لأي أمر بالسكوت عنه ، لتندمج الرسالة بالرسول تبعا لذلك وحدة غـير قابلة للفصام .

إن إشكالية تدوين الحديث النبوي بدأت في مرحلة مبكرة بعيد رحيل رسول الله ، لكنها في زمن الصادق وتصاعد وتيرة التدوين وصولا إلى ظهور الصحاح المعروفة للحديـــث ، اتخـذت طابعا فيه تبادل للاتهام استنادا إلى طبيعة المرحلة ذاتها وظهور الكثيرين ممن رووا عن الإمـــام الصادق من بين الذين تتلمذوا على يديه في المدينة المنورة .

قيل عن الصادق في معرض الجدل الدائر حوله(والقول لابن سعد صاحب الطبقـات)[١٩] "كان جعفر بن محمد كثير الحديث ، ولا يحتج به ويستضعف ، سئل مرة ، سمعت هذه الأحـاديث من أبيك فقال نعم وسئل مرة ، فقال إنما وجدتها في كتبه " وهذا يعني أن الصادق كان يحدث عن رسول الله بما قرأه في كتب آبائه وصولا إلى ماتم تدوينه في زمن الإمام علي بن أبي طـــالب ، وقد اعتبر المحدثون ذلك عيبا،لأنهم يعتبرون السماع المباشر والحفظ أهم من الكتب المنقولـــة أو

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بمعنى آخر لم يعتبروا أن ماهو مكتوب يرقى إلى مستوى الوثيقة وليس له أهمية السماع والحفظ.

استنادا لما تقدم يبرز سؤال مشروع لماذا تأخر عصر التدوين عند الغالبية العظمى من المسلمين للحديث النبوي على الرغم مما يشكله التوثيق بالكتابة من أهمية مصيرية؟ ولماذا انفردت مدرسة أهل البيت بالتدوين وانتاج الكتب ليصبح التأليف تهمة بدل أن يكون مزية تستوجب المديح؟ وهل الحفظ المعرض للنسيان البشري أهم من الكتابة ؟.

وبالعودة إلى وثائق فجر الإسلام فقد بدا التدوين في عهد الرسول مباشرة بتدوين القرآن الكريم ، وهو مما يرقى إلى مستوى التواتر ثم جمع القرآن الكريم بعيد رحيله من قبل الإمام علي بن أبي طالب ليكون في نسخة أساسية [٢٠] .

يقول :ابن النديم :" اقسم على أن لا يضع رواءه حتى يجمع القرآن فجلس في بيته ثلاثة أيام حتى جمعه ، فهو أول مصحف جمع فيه القرآن من قلبه ، وكان المصحف عند أهل جعفر ...".

وظل من المتعارف عليه أن صلح الحديبية على سبيل المثال كان من المدونات ، ومثله المعاهدة التي تمت بين رسول الله ويهود المدينة ، فلا بد أن بعض الصحابة وفيهم الإمام علي (رض) دونوا أحاديث للرسول واحتفظوا بها ، رغم أن بعض المحدثين والقدماء من الباحثين يبادرون إلى نفي ذلك بشدة كأنه تهمة بسبب من أن الشيعة يذكرونه في كتبهم القديمة. [٢١] واستطرادا فقد تحدث الشيعة عن أقوال لرسول الله متواترة مكتوبة وهذا ما لم يتوفر في مراجع اعتبرها السنة أكثر وثاقه وتم البدء بتدوينها في مراحل متأخرة ، أي في منتصف القرن الثاني للهجرة [٢٢] ومنها صحاح البخاري ومسلم وغيرهما والتي كتبت في القرن الثالث ، لكن ما أثر عن الإمام علي يؤكد على وجود صحيفة احتفظ بها معه بإملاء من الرسول [٢٣].

ثبت أن عصر الخلفاء الثلاثة الراشدين الأول تميز بمحاربة تدوين الحديث النبوي حتى لا يختلط بالقرآن ، كما أثر عنهم ونسب إلى الزهري قوله : كنا نكره كتابة العلم حتى اكرهنا عليه السلطان (يقصد عمر بن عبد العزيز) فكرهنا أن نمنعه أحدا [٢٤] .

ويقصد بالعلم عادة هنا علم الحديث ، لكن مصادر أخرى تؤكد أن علوما أخرى جرى تدوينها قبل ذلك بكثير ، ومنها علم النحو على يد أبو الأسود الدؤلي الذي أخذه عن الإمام علي بن أبى طالب ، ويذكر في هذا السياق انه سمي (نحوا) لأن الأسود عندما سمع بعض أصول النحو من الإمام علي استأذنه في صنع (نحو) ما صنع فسمي ذلك نحوا ؟ .[٢٥]

أما علم الفقه الإسلامي ، وهو من أوسع العلوم وأكثرها تشعبا ، فالخلاف حوله أكبر، ذلك

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أن المؤرخين السنة يعتبرون أول من وضع علم الأصول الذي يعتبر أساس الفقه الإسلامي ، هو الإمام الشافعي الذي عاصر المأمون العباسي ، لكن مصادر الشيعة ومؤرخي حياة الإمام الصادق يثبتون أن الإمام الصادق هو من أملى الأصول الأربعمائة في الفقه .

يقصد بالأصول ما يعرف بعلم استنباط الأحكام من القرآن والسنة والعقل والإجماع والمصالح المرسلة وغيرها ويعتبر القرآن والحديث النبوي أهم هذه الأصول التي يرجع إليها لكن القرآن الكريم يتصل بعلم النحو اتصالا جذريا ، ويجري تأويل القرآن تبعا لمعاني المفردات في اللغة العربية وموقعها في الجملة ، بما في ذلك النقطة والفاصلة وقد كان الإمام محمد الباقر (الإمام الخامس) سباقا في هذا المجال [٢٦] برواية أبي الجارود (زياد بن المنذر رئيس الجارودية الزيدية) فقد ألف كتابا في تفسير القرآن. لكل هذا ولأن الإمام الصادق عرف عنه تدريس الفقه والتفسير والحديث في جامعة المدينة المنورة ، فلا مناص من القول أن مدرسته كانت السباقة في كل العلوم الدينية تدريسيا وتدوينا، بل أن أحد تلاميذه وهو هشام بن الحكم صنف كتابا في (الألفاظ) وأن تلميذا آخر هو يونس بن عبد الرحمن ألف كتابا في علم الحديث [٢٧] وهذان العلمان وأعني علم الألفاظ ودلالاتها ، وكذلك علم معرفة صحيح الحديث النبوي من موضوعه ، أمران لاغنى عنهما لعلم الفقه الديني الإسلامي .

على أية حال تبدو الصورة الأشد وضوحا لعصر الإمام جعفر بن محمد أن مدرسته المزدهرة في المدينة المنورة ، وقد امتدت على مسافة زمنية واسعة مقدارها أربع وثلاثون عاما هي عمر إمامته (١١٤-١٤٨) تميزت ليس ببدء التدوين في علوم الدين فحسب بل إنها تجاوزت ذلك إلى علوم أخرى كالكيمياء على سبيل المثال ، في هذه المسألة بالذات يتصاعد الجدل بين المؤرخين ذلك أن هذا العلم بعيد جدا عن أن يكون متصلا بعلوم الدين وهو يعتمد على الترجمات عن الكتب اليونانية والهندية وهذا يعني أن بدايته لا بد أن تكون في عصر الترجمة ، الذي بدأ كما يقولون في زمن الرشيد العباسي في الربع الأخير من القرن الثاني الهجري عندما استحضر الكتب وأمر بالترجمة . وبما أن جابر بن حيان مؤسس علم الكيمياء عند العرب يعترف في رسائله [٢٨] أنه أخذ هذا العلم عن الإمام الصادق ،فقد أدى ذلك إلى تصاعد الحيرة وتبادل الآراء إلى درجة جعلت بعضهم ينفي هذه الصلة بين الصادق وابن حيان ،أو يشكك بالرسائل ذاتها رغم أنها ثابتة الصلة بالمؤلف وموجودة بخطه في باريس ، لهذا قيل عن ابن حيان لتبرير براعته في هذا العلم أنه كان صابئيا وكانت الصابئية أمة عظيمة الثقافة مركزهم مدينة حران ، واتصلوا بالإمام الصادق وحضروا دروسه في المدينة المنورة [٢٩] .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لقد ساهم علماء الغرب في الجدل الدائر لتبرير صلة الإمام الصادق بالكيمياء كما أعطاه أو علمه لابن حيان . فعادوا إلى طرح التأثر بالهرمسية التي يقول عنها المفكر الفرنسي مينستوجيير "أن أبرز سمات الفكر الهرمسي هو أنه فكر لم يعد يفصل بين العلم و الدين (...) وهكذا فلمعرفة أسرار الصنعة (الكيمياء) لا بد من أن يجد الإنسان الله أولاً (...) وأذن فمعرفة الإنسان لنفسه يعرف الله وبمعرفته لله يعرف أيضاً الأصباغ الرفيعة (التي تحول المعادن الخسيسة إلى ذهب) ذلك لأن المعرفة كل المعرفة إنما تتلخص في هذه المعرفة الوحيدة . إن من يتصل بالله يغرف من ذات النبع الذي تنبع منه الحقيقة .."[٣٠]

فهل قرأ الصادق (رض) الهرمسية عن اليونانية أو الفارسية ليلم بها هذا الإلمام المعجز بحيث يستطيع تدريسها ضمن ما درسه في جامعة المدينة المنورة ؟ !!

بمعنى أوضح هل قام الصادق بالترجمة لنفسه (القراءة) أو لغيره (تدوين كتب مترجمة) قبل أن يبدأ عصر الترجمة المعروف ؟

لم يعرف عن الصادق أنه غادر المدينة المنورة إلا إلى العراق . كانت حركاته معروفة ومحسوبة و مراقبة بأحكام ، وقد عرف عنه معرفته للكثير من اللغات المتداولة في عصره ، لكن ورثته في جامعة المدينة لم يبرزوا أي كتاب غير عربي بعيد رحيله عن الدنيا ، ولم يعرف أنه يملك أياً من هذه الكتب ، فلم تذكر كتب السير ذلك مطلقاً ، ولو كان لديه منها لما أمكن إخفاء هذا الأمر حتى من قبله هو .

فالكتاب مقتنى يفخر به ولا يخفى ، ودليل ذلك أن استيراد الكتب و ترجمتها عد من أبرز سمات عصر الخلفاء العباسين كالرشيد و المأمون .ورغم ضياع الكثير مما كتب في عهده إن بإملائه هو أو من قبل تلامذته الكثر لأسباب لا مجال لذكرها ، فإن أحدا لم يتجرأ على اتهامه بالنقل عن كتب غير كتب آبائه في الحديث النبوي أو التفسير . كل هذا يجعل من الجدل الدائر حوله أمرا أكثرغموضا عن أن يتوصل إلى الحقيقة اليقينية عن مصادر علمه أو إلهامه (بمعنى العلم اللدني). ومع ذلك فان جامعته ترسم بما قدمته في عصر التدوين من إنجازات ، صورة باهرة عن إمام ملأ الدنيا وشغل الناس .

لقد كان من ضمن ما أثر عن الصادق أيضا ، املاءاته في علم الطب البشري و علم التاريخ ، ونقل عنه الكثير من ذلك ، و ينسب إليه فوق ذلك تأسيسه للعلوم العرفانية ، ومعلوم أن العرفانيين الكبار كأبي يزيد البسطامي المتوفى عام ٢٦١ أخذوا منه الكثير [٣١] . ومن قبله كان الحسن البصري تلميذا مخلصا للإمام علي بن أبي طالب .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

العرفان أسلوب في الحياة وطريقة للعمل الجاد في جو من العشق و الحب ، وهو فلسفة في الإلهيات كتب فيها الكثير . و غالبا ما اتهم العرفانيون المسلمون بالأخذ عن الهرمسية و الغنوصية * بمصادرها الفارسية و الهندية واليونانية ، لكن ما نقل عن الإمام الصادق في عرفانياته يختلف كثيرا ، فهو موحد يرفض الثنائية للوجود ووحدة الوجود ، ويلتزم بالإسلام بملامحه المشهورة التزاما مطلقا ، و حارب الغلاة وتبرأ منهم ، وهو يحوز إجماع الذين كتبوا في العرفان ، بأنه قدوة العرفاء في التاريخ الإسلامي .

يقول الجابري :"تم تدوين العلوم لدى الشيعة قبل ١٤٣ هـ بواسطة الإمام الصادق ، وتجاهل المؤرخون السنة ذلك ، وإذا علمنا أن التاريخ لتدوين العلوم عند الشيعة قد فعل هو الآخر نفس الشيء فسكت عن العلم السني ، أدركنا أن عملية التطويق كانت متبادلة ، فالسكوت عن العلم الشيعي جزء من الشروط الموضوعية التي حددت شروط صحة العلم السني ، والعكس صحيح ..."[٣٢] هذا الرأي أو حكم القيمة الذي يمكن قبوله (بتحفظ) يمكن له أن يلخص جدلية هذا العصر الناهض ، لكن تدوين علوم الفقه و الحديث و التفسير، وقد بدأت قبل ذاك التاريخ وقبل الصادق تدفعنا إلى طرح سؤال حول إشكالية التمييز بين مؤلف شيعي وآخر سني في زمن أبهمت فيه التخوم بين الفريقين . لقد جاءت التقييمات للمؤلفين (مذهبيا) في عصر متأخر نسبيا ، ومثل ذلك ما وضع حول شروط صحة أي علم من العلوم بما في ذلك علم الحديث النبوي ، وربما كان الفرز الطائفي منبعثا فيما يتعلق بشروط الصحة التي اعتمدها كل فريق ، ولعل تراكم مفرزات وضع كهذا رسخ إضافة إلى فعل السلطة الحاكمة في محاربتها لمدرسة أهل البيت تباعد وجهات النظر بين الفرقاء وصولا إلى ظهور أبي الحسن الأشعري (٢٦٠-٣٢٤) كإمام المتكلمين السنة ، مما فسر على أنه استجابة سنية للمنبه الشيعي [٣٣] حتى إذا جاء (الشهرستاني) في كتابة الشهير (الملل والنحل) لمسنا أحكام قيمة على الأفكار الشيعية المتداولة في عصر الإمام الصادق تتسم بالتعسف الشديد ، علما أن غالبية المراجع التي اعتمد عليها (الشهرستاني) في التقييم لم تعد متوفرة في العصر الراهن حتى تتم المقارنة ، فهل كان الكثير من هذه الأحكام مجرد وجهات نظر الأطراف المضادة لتيار مدرسة أهل البيت بما في ذلك وجهة نظر المؤلف نفسه ؟

محطات بارزة في حياته واقواله :

عاش الإمام حياة بالغة الغنى والتنوع رغم استقراره في المدينة المنورة لم يبارحها إلا في رحلات قصيرة إلى العراق ، ويبقى ابرز ما أثر عنها مواجهاته مع أبي جعفر المنصور ثاني

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

خلفاء بني عباس .

دعا المنصور الصادق سبع مرات كان بعضها بالمدينة والربذة حين حج المنصور وبعضها يرسل إليه إلى الكوفة أو إلى بغداد بعد بنائها ، ويقال انه ما أرسل إليه مرة إلا أراد قتله ناهيك عن سوء القول ، يقول الشريف الرضي " وقد استدعاه المنصور مرة بعد قتل محمد النفس الذكية وأخوه إبراهيم عام ١٤٥ هـ وقد روى ذلك من صفوان بن مهران الجمالي قال : رفع رجل من قريش المدينة من بني مخروم إلى المنصور أن جعفر بن محمد بعث مولاه المعلى بن خنيس لجباية الأموال من شيعته وأنه كان يمد بها عبد الله بن الحسن – فاستدعاه إلى بغداد فلما رآه قربه وأدناه وقدم له قصبة المخبر وقال له : يا جعفر بن محمد ما هذه الأموال التي يجبيها لك المعلى بن خنيس ، فقال الصادق معاذ الله من ذلك ، فقال المنصور : ألا تحلف على براءتك من ذلك بالطلاق والعتاق ، قال نعم احلف بالله أنه ما كان من ذلك شيء فقال أبو جعفر : لا بل تحلف بالطلاق والعتاق ، فقال : آما ترضى بيمني بالله الذي لا اله إلا هو ، قال أبو جعفر: لا تنفقه علي فقال : وأين يذهب بالفقه مني يا أمير المؤمنين ، قال : دع عنك هذا فأنني اجمع الساعة بينك وبين الرجل الذي رفع عليك (..) فأتوا بالرجل ، قال الصادق : تحلف أيها الرجل الذي رفعته صحيح ، قال نعم ، ثم ابتدأ باليمين فقال : والله الذي لا اله إلا هو الغالب الحي القيوم فقاطعه الصادق ، لا تعجل بيمينك فإني استحلفك ، قال المنصور : وما أنكرت من هذا اليمين ، قال الصادق : أن الله تعالىكريم يستحي من عبده إذا أثنى عليه أن يعاجله بالعقوبة لمدحه له ولكن قل أيها الرجل : أبرأ إلى الله من حوله وقوته والجأ إلى حولي وقوتي أني لصادق بر فيما أقول ، فقال المنصور للقرشي : احلف بما استحلفك به أبو عبد الله ، فحلف الرجل بهذه اليمين ، فلم يستتم الكلام حتى اجترم وخّر ميتا ، فراع المنصور ذلك وارتعدت فرائصه فقال : يا أبا عبد الله سرح من غد إلى حرم جدك إن اخترت ذلك وان اخترت المقام عندنا لم نأل من إكرامك وبرك ."

ذكرت هذه القصة في عدد كبير من المراجع : نور الأبصار للشبلنجي – التذكرة للسبط– مطالب السؤال لابن طلحة – الفصول لابن الصباغ – الصواعق المحرقة لابن حجر وغيرهم"(٣٤).

إن أهمية حدث كهذا – وقد ورد في معظم المراجع – تبرز من أهمية استمرارية الصادق حياً في زمن المنصور رغم كل ما دس له عنده حتى انه كان يهم بقتله عند كل استدعاء ، وهذا ماجعل المؤرخين المحدثين يرفضون نظرية اغتيال الإمام بالسم من قبل والي المدينةعام ١٤٨هـ

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ويبرز ذلك ما قاله المنصور في توصيفه" هذا الشجي المعترض في حلوق الخلفاء الذي لايجوز نفيه ولايحل قتله ، ولولا ما تجمعني وإياه من شجرة طاب أصلها وبسق فرعها وعذب تمرها وبوركت في الذرية وقدست في الزبر لكان جنى ما لاتحمد عقباه ، لما بلغني من شدة عيبه وسوء القول فينا .."

وربما كان خوف المنصور من الصادق من أبرز الأسباب التي جعلته يبقيه بعيدا في المدينة ولا يجرؤ على اغتياله هناك ، ومن المعروف أن الإمام رفض مجاورة الخليفة عندما عرض عليه ذلك قائلا :"ليس لنا ما نخافك من أجله ولاعندك من أمر الآخرة ما نرجوك له ، ولا أنت في نعمة فنهنئك ولانراها نقمة فنعزيك (..) من أراد الدنيا لاينصحك ومن أراد الآخرة لايصحبك " .

إن مجمل القول فيما تقدم يقدم الصادق على أنه خاتمة المرحلة التي ازدهرت بها جامعة المدينة المنورة بقيادة أهل البيت ، فقد استدعى العباسيون الإمام موسى الكاظم بعيد رحيل الصادق فعاش في كنفهم زمنا قضى معظمه في السجن الحقيقي والإقامة الإجبارية ليبقى الإمام الصادق وحده قمة مرحلة الأئمة ومنتصفهم وأكثرهم انتاجا ، مما جعله أهلا لكي يحمل مذهب التشيع اسمه واضعا لأصول الفقه ، ليس لما يسمى تيار التشيع وحسب بل ربما لكل التيارات الإسلامية التي تولدت بعده ، إن متأثرة به كالاعتزال أو رد فعل عليه كا لمذاهب الأربعة أو تيار الاشاعرة الذي يلخصها ويسندها ، وكذلك لكل متفرعات التشيع ذاته وهي كثيرة ، كالإسماعيلية الفاطمية ، والنصيرية وغيرها .

لقد أثر عن الصادق نصوص من الحكمة التي تثير الشجى والإعجاب ، ويظل دعاء الفرج من أجملها لكن وصاياه السياسية في التقية والعصيان المدني كانت الأساس لحركات النضال السلبي في مواجهة السلطات القائمة في زمنه ومن بعده .

يقول :" التقية ديني ودين آبائي ولا دين لمن لاتقيه له : إن المذيع لأمرنا كالجاحد به ، نفس المهموم لظلمنا تسبيح وهمه لنا عبادة وكتمان سرنا جهاد في سبيل الله .."[٣٥]

ويقول في المعارضة السلبية " إياكم أن يخاصم بعضكم بعضا إلى أهل الجور (...) ايما مؤمن قدم مؤمنا في خصومة إلى قاض أو سلطان جائر فحكم عليه فقد شركه في الآثم ."

" اتقوا الحكومة ، فان الحكومة للإمام العالم بالقضاء ، العادل بالمسلمين كوصي أو نبي...".

ومن أقوال كهذه نرى الإمام الصادق وهو في اعتزاله الصراع المباشر يكشف ارشادته

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

التحريضية التي ساهمت تماما في اذكاء نار الثورة التي أطاحت بالنظام الأموي ، شارحاً بشـــكل عملي طبيعة مقاطعة السلطة ومؤسساتها وخاصة مؤسسة القضاء .

من أجمل ما أثر عنه في الدعاء " اللهم احرسني بعينك التي لاتنام ، واكفني بركنك الـــذي لايرام ، واحفظني بعزك الذي لايضام ، واكلأني في الليل والنهار ، وارحمني بقدرتك علي أنـت ثقتي ورجائي فكم من نعمت أنعمت بها علي قل لك بها شكري ، وكم بلية ابتليتني بها قل بها لـك صبري ، وكم خطيئة ركبتها فلم تفضحني ، فيامن عند نعمته قل شكري فلم يحرمني ، ويامن قـل عند بلائه صبري فلم يخذلني (..)

يا إلهي أسألك فرجا قريبا – وأسألك العافية من كل بلية (..) وأسالك الغنى عـــن النـــاس ولاحول ولاقوة إلا بالله العلي العظيم ، اللهم بك استدفع مكروه ما أنا فيه وأعوذ بك من شره يـــا أرحم الراحمين ..) .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

هوامش :

(١) محمد عابد الجابري ، تكوين العقل العربي ، مركز دراسات الوحدة العربية بيروت ط ٣ – ١٩٨٨ ، ص ٦٤ .

(٢) محمد أبو زهرة ، الإمام الصادق حياته عصره آراؤه الفقهية ، مطبعة مخيمر بلا تاريخ ، الظاهرة ص ١٦٥ ، والفقهاء السبعة هم سعيد بن المسيب ، عروة بن الزبير ، القاسم بن محمد بن أبي بكر ، خارجه بن زيد ، عبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، سليمان بن يسار ، عبيد الله بن مسعود ، ويضيف إليهم أبو زهرة كلا من :

ابن شهاب الزهري – عبد الله بن ذكوان – ربيعة الرأي ربحي بن سعيد – وقد عاصرهم الصادق جميعا .

(٣) ابوزهرة ،م . س ، ص ١٥.

(٤) راجع : علي سامي النشار ، نشوء المذاهب الفلسفية في الإسلام – محمد صبحي ، نظرية الإمامة .

(٥) محسن الأمين العاملي :في رحاب أئمة أهل البيت ج ٢ ، دار التعارف ، بيروت ١٩٨٠ ص ٦٨ .

(٦) م. س ، ص ٢٠٤.

(٧) أبو زهرة ، م.س ،ص ٧ .

(٨) أحمد أمين ، ضحى الإسلام ، ج ٣ ، دار الكتاب العربي بيروت ، ط١ ١٩٣٦، ص ٢٦٢.

(٩) كما نرى فإن فكرة الإمام المهدي المنتظر فكرة إسلامية عامة لايختص بها مذهب التشيع ، وورد حولها أحاديث نبوية ثابتة ، وعندما طرحت في هذا الاجتماع لم يكن الإمام المهدي قد ولد بعد .

(١٠) أبو الفرج الاصفهاني ، مقاتل الطالبيين ، ص ٢٥٦ .

(١١) أبو زهرة م.س ،ص ٥٩

(١٢) محمد أبو زهرة – الإمام مالك – مكتبة الانجلو مصرية ، القاهرة ١٩٤٦ – ص ٥٤–٥٥.

(١٣) أسد حيدر ، الإمام الصادق والمذاهب الأربعة ج ١ ، مذهب أبي حنيفة .

(١٤) ضحى الإسلام ج ٣– م.س، ص ٢٦٤.

(١٥) الذهبي ، محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز بن الذهبي توفي ٧٤٨هـ، تذكرة الحفاظ ج١

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

- دار أحياء التراث العربي بيروت، ص ١٧٠.

(١٦) محمد أبو زهرة ، الإمام أبو حنيفة حياته وعصره ، دار الفكر العربي القـــاهرة ١٩٤٧ ، ص ٧٠.

(١٧) الذهبي ، العبر في تاريخ من غبر ، تحقيق صلاح المنجد ، الكويـت ، مطبعـة الحكومـة ١٩٨٤ ج ١ - ص ٢١٣، ويعتقد الذهبي إن أبا حنيفة اغتيل بالسم بأمر من المنصور.

(١٨) أحمد أمين ، هارون الرشيد ، دار الهلال ٣ ، القاهرة ١٩٥١ ، ص ١٧٤.

(١٩) ضحى للإسلام ج ٣-٠ م.س ، ص ٢٦٥.

(٢٠) في نسخة مكتبة الأسد بدمشق من طبقات الصحابة للذهبي سقطت ترجمة الإمام جعفر بـن محمد.

(٢٠) ابن النديم محمد بن يعقوب بن إسحاق توفي ٣٨٠ هـ الفهرست ، تحقيق يوسـف علـي الطويل ، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٩٩٦ ، ص ٤٤.

(٢١) محمد أبو زهرة ، الصادق ، م.س ، ص ٣١٤ .

(٢٢) محمد رضا الجلالي ، تدوين السنة الشريفة ، مكتب الإعلام الإسلامي ، قم إيـران ، ١٩٥٢ ص ١٥.

(٢٣) تذكرة الحفاظ م.س ، ص ١٢.

(٢٤) تدوين السنة الشريفة م.س، ص ١٧.

(٢٥) الفهرست م.س، ص ٦٢.

(٢٦) الفهرست م.س ، ص ٥٢.

(٢٧) محمد أبو زهرة ، الصادق ، م.س ، ص ٢٦٩.

(٢٨) محمد يحيى الهاشمي ، الإمام الصادق ملهم الكيمياء ، دار الأضواء ١٩٨٦.

(٢٩) نور الدين آل علي (ترجمة) الإمام الصـادق فـي نظـر علمـاء الغـرب ، دار فـاضل دمشق ١٩٩٥،ص ١٣٠.

(٣٠) تكوين العقل العربي م.س ، ص ٦٦.

(٣١) الإمام الصادق في نظر علماء الغرب م.س ، ص ١٢٧.

(٣٢) تكوين م، س ، ص ٦٦.

(٣٣) تكوين م.س، ص ١١٢.

(٣٤) محمد حسين المظفر الإمام جعفر بن محمد الصادق ، ص ٢٠٩.

(٣٥) م.س، ص ٨٧.

* الغنوصية و الهرمسية : راجع بحث مرحلة ازدهار علم الكلام الإسلامي .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الإمام الصادق في أصول الكافي

تمهيد :

الكافي هو المنبع الأبرز للحديث النبوي على لسان الأئمة (رض) ومن أبرز مايثير انتباه الباحث رجوع الجامع في متونه (أبو جعفر محمد بن يعقوب الكليني - توفي سنة ٣٢٩ هـ) في القسم الأعظم مما روي فيه من الحديث إلى الإمام جعفر بن محمد الصادق (رض).

عاش الكليني في عصر الغيبة الصغرى للإمام محمد المهدي (رض)، فإذا اعتبر العام ٢٦٥ هـ. هو زمن اختفاء الإمام هربا من القتل باتفاق المؤرخين ، وإذا قبلت أخبار استمرار هذا الاختفاء مدة سبعين سنة مع دوام الاتصال بشيعته ، في العراق خاصة ، ومتابعة إصدار إرشاداته من خلال نائبه الأشهر (علي السمري) ، فإن الإمام الكليني مع كل تلك الثقة والإجلال اللذين يحاط بهما من قبل الشيعة - لابد وقد أخذ عنه الكثير (من خلال النائب)، رغم أنه لا يشير إليه في مروياته بأي شكل من الأشكال فليس من حديث واحد يعود إلى الإمام المهدي رضي الله عنه أو نائبه .

الغيبة الصغرى من المراحل الغنية في التاريخ الإسلامي رغم غموض الحياة الخاصة للإمام المهدي ، ويمكن الاستنتاج بأن الإمام تمكن في مخبأه من متابعة الاتصال وإصدار توصيات والحفاظ على تراث آبائه ، في ظلال قمع سلطوي قاس ضد أتباعه . في تلك المرحلة تمكن الكليني من جمع الكتاب الأشهر والأكثر ثقة وإثارة للجدل في كل مراحل نمو المذهب وتطوره حتى يومنا هذا ، وجاءت الكتب اللاحقة الأربعة ، من لا يحضره الفقيه للإمام محمد بن بابويه القمي (الصدوق) الذي توفى بالري عام ٣٨١ هـ وكتابي التهذيب والاستبصار للإمام محمد بن الحسن الطوسي المتوفى عام ٤٦٠ هـ ، ووسائل الشيعة للحر العاملي ، كأبحاث استدراكية واستنباطية من كتاب الكافي ، ولا ينكر هنا أن هذين الباحثين قاما بوضع اجتهاداتهما الخاصة في تصحيح الكثير مما ورد في الكافي مبرزين أهمية الاجتهاد في المدرسة الشيعية (مدرسة أهل البيت). ومن أجل مزيد من التوضيح يجدر القول أن هذه المدرسة تلتزم بالأصول الواردة في الكافي خاصة في الجزأين الأولين من زاوية أن لا صحيح في الأحاديث النبوية ما لم يتطابق مع كتاب الله والعقل ، تبعا لأحاديث الإمام الصادق (رض) التي أوردت فيهما بابي العقل والجهل واختلاف الحديث .

يقول الإمام الصادق : "أن الحديث ينسخ كما ينسخ القرآن " [١]

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ويقول : "كل شيء مردود إلى كتاب الله والسنة، وكل حديث لا يوافق كتاب الله ، فهو زخرف " [٢] .

ويقول :" العقل دليل المؤمن " [٣] ويقول : " حجة الله على العباد النبي والحجة فيما بين الله وبين العباد العقل " وغير ذلك كثير .

" تعتبر أصول الكافي في غالبيتها غير صحيحة الإسناد بناء على مقاييس الصحة في مدرسة أهل البيت ، وقد أوردها الكافي معتمداً عليها لاعتبار متونها وموافقتها للعقائد الحقة التي لا ينظر في مثلها إلى الإسناد [٤] ."

وفي هذا السياق يمكن ملاحظة أن المرجعيات العلمية الأولى لمدرسة أهل البيت لم تول الأصول في الحديث النبوي ذلك الاهتمام الكبير – من ناحية التدقيق في صحة السند – ما أولته للفروع ، التي هي كما هو معروف ، تختص بتفاصيل العبادات والمعاملات والشؤون الاجتماعية للمسلمين ، واكتفت بصحة الأصول من ناحية االمتن – أي انعدام التناقض فيه وتوافقه مع العقل والمنهج الأيديولوجي لمدرسة أهل البيت بشكل عام – رغم أن الأصول تستحق من الاهتمام في صحة الإسناد والتواتر ، مثيلاتها في السنة النبوية ، تبعا للأهمية العظمى التي تتضمنها المتون في مسائل : كالتوحيد والعقل والجهل ، والحجة (نظرية الأمامة) والقواعد التي يؤخذ على أساسها الحديث النبوي عامة ، بمعنى أصول التعامل مع السنة النبوية ، والدعاء ، وغيرها من الأبواب .

الفروع والأصول في الكافي ماعدا (باب الحجة) تتمتع بالعديد من التقاطعات المنسجمة ، حتى في الألفاظ الواردة في متن الحديث ، مع الكتب المعتمدة لدى السنة والجماعة ، وهي ثمانية رئيسية : البخاري –مسلم –الحاكم في المستدرك – مسند ابن حنبل –موطأ مالك – سنن الترمذي – سنن ابن ماجه – سنن أبي داوود .

هذه التقاطعات أدت عند بدء عصر النهضة العربية الحديث إلى دراسة الكافي بعين أكثر إنصافاً ، مما جعل مؤسسة الأزهر ، وهي كبرى المرجعيات الإسلامية السنية التاريخية ، تعترف بأن مذهب أهل البيت مقبول كمذهب خامس من المذاهب الإسلامية المنسجمة مع العقيدة[٣]، وبأن ماورد فيه من تقاطعات مع كتب الحديث النبوي المعتمدة تكفي لهذا الاعتراف ،.مع التعامل بحذر مع الأحاديث غير المناقضة لما ورد فيها ، ورفض قاطع لكل ما لم يرد في تلك الكتب ويتعلق خاصة بنظرية الإمامة والمهدية .

لكن ما يجب أخذه بعين الاعتبار حقاً بالنسبة للكافي هو مرجعية الأحاديث فيه والتي

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تنقسم إلى قسمين أساسيين : قسم يعود إلى رسول الله (ص)، وقسم هو الأكبر يعود إلى الإمام جعفر الصادق (رض) وباقي الأئمة الكرام ، وقد حسم الإمام الصادق هذا الأمر بحديثه الشهير [٤] "حديثي حديث أبي ، وحديث أبي حديث جدي ، وحديث جدي حديث الحسين ، وحديث الحسين حديث الحسن ، وحديث الحسن حديث أمير المؤمنين (ع) وحديث أمير المؤمنين حديث رسول الله (ص) وحديث رسول الله قول الله عز وجل " .

ومع ذلك فلا مندوحة من أخذ أحاديث الإمام الصادق وغيره من الأئمة فيما يتعلق بأحداث زمنهم وبعض التفاصيل اليومية وأحكام القيمة السياسية ولعن الغلاة وغير ذلك ، على أنها خاصية بكل منهم على حده لا يمكن نسبتها إلى رسول الله ، وتبعا فإن المراجع الشيعة عبر التاريخ بالتزامهم بمبدأي العقل وكتاب الله في مسألة التدقيق في الأحاديث ، قاموا بعرض الكافي بأكمله على هذين المبدأين ، وتم التدقيق به تبعا لذلك ، مما أدى إلى رفض الكثير من الأحاديث وصلت في بعض المصادر إلى ما يقرب من ستة آلاف حديث ، وقد سبق للإمام الكليني نفسه أن شكك في بعض ما أورده خاصة في أحد أهم أبواب الكتاب وهو باب الحجة (نظرية الإمامة) فسجل في باب (النوادر) ما اعتبرته المرجعية الشيعية (مما لم يثبت صحته قطعا) من قبل جامع الكتاب ذاته وخاصة حول سقوط ألفاظ من القرآن الكريم [٥] وعلى سبيل المثال هذا الحديث عن أبي عبد الله (الصادق) حول نص الآية الكريمة من سورة المؤمن آية /١٣/ باعتبار أنها نزلت هكذا " ذلك بأنه إذا دعى الله وحده (وأهل الولاية) كفرتم' ومثلها " سأل سائل بعذاب واقع للكافرين (بولاية علي) ليس له دافع ، ثم قال هكذا والله نزل بها جبرائيل (ع) على محمد (ص) ."

وقد برر ذلك من قبل الجامع والمرجعية حقا أن الكليني رحمه الله أورد في الكتاب كل ما سمعه حتى ولو لم تثبت صحته له شخصيا ، وتبعا لطبيعة المؤسسة الشيعية في عصر الغيبة وفتح باب الاجتهاد ، استنادا إلى الأصول ذاتها فقد تم عرض الكتاب كله على المحك ورفض منه عدد كبير من الأحاديث كما أسلفنا .

يعتبر كتاب (الحجة) من الكافي أشدها إثارة للجدل ، ولعله الباب الوحيد الذي انصب عليه النقد والتشكيك من قبل الباحثين المسلمين والمستشرقين فكأنما ، اعتبر جوهر الأيديولوجيا الإسلامية الشيعية بما تضمه من نصوص عن الأئمة بما يلخص نظرية الإمامة والعصمة المهدية والغيبة والرجعة بمجملها ، بما في ذلك تفسير الآيات المشكلة في القرآن الكريم (وهي معروفة وكثيرة) والتي تتعلق بالنص على الولاية ، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر :"

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم "النساء(٥٩) " إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا " الأحزاب (٣٣) ومنها مثلا " يا أيها الناس قد جاءكم الرسول بالحق من ربكم" النساء(١٧٠) (في ولاية علي) فآمنوا خيرا لكم وان تكفروا (بولاية علي) و لله ما في السماوات وما في الأرض " النساء (١٣١)وهي وردت في الكافي بوضع الأقواس بسقوط الكلمات وللتفسير من قبل الإمام الباقر ومنها مثلا " وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون " التوبة(١٠٥)، وقد وردت عن الإمام الصادق باعتبار أن (المؤمنين) تلفظ المأمونون وهم الأئمة من أهل البيت .. وهكذا ، وتجدر الإشارة إلى أن جميع هذه الآيات وغيرها ملحقة في باب النوادر في الكافي تحت عنوان " نكت ونتف من التنزيل في الولاية " وتم التعامل معها برفض أو بحذر من قبل المرجعية الشيعية عبر التاريخ وحتى الآن [٦] علما أن تفسير بعضها قد قبل حكماء، وخاصة النص على أن آية " إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون" المائدة (٥٥) نزلت في الإمام علي (رض) وقد وردت تقاطعات في قبولها هكذا في عديد من التفاسير المعتمدة لدى مدرسة السنة والجماعة ، وان لم يخل الأمر من جدل حول هذا التفسير [٧].

هذا الجدل حول نصوص من أصول الكافي نجده أحيانا مثبتا في الكتاب خاصة في تأويل الأحاديث ، وفي هذا المجال يلفت النظر حديث للإمام الباقر (رض) عن الإمام علي (رض) هذا نصه [٨] " أن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين " الأعراف(١٢٨)أنا وأهل بيتي الذين أورثنا الله الأرض ونحن المتقون والأرض كلها لنا ، فمن أحيا أ رضا من المسلمين فليعمرها وليؤد خراجها إلى الإمام من أهل بيتي وله ما أكل منها فإن تركها أو أخربها وأخذها رجل من المسلمين من بعده فعمرها وأحياها فهو أحق بها من الذي تركها ، يؤدي خراجها إلى الإمام من أهل بيتي وله ما أكل منها حتى يظهر القائم من أهل بيتي بالسيف فيحويها ويمنعها ويخرجهم منها كما حواها رسول الله (ص) ومنعها إلا ما كان في أيدي شيعتنا فإنه يقاطعهم على ما في أيديهم ويترك الأرض بين أيديهم " انتهى .

يقول الكليني : جرى الخلاف بين ابن أبي عمير (أحد رواة أحاديث الإمام الصادق) وبين أبي مالك الحضرمي (أحد رجال هشام بن الحكم) حول تفسير هذا الحديث ، بين أن الأرض كلها للإمام كما قال أبو عمير وبين أنها ليست كذلك إلا بمعنى ماحكم الله به للإمام من الفيء والخمس والمغنم فذلك له وذلك بين الله للإمام أين يضعه وكيف يضع به ، كما فسر أبو مالك الحضرمي ، وقد حسم هشام بن الحكم الخلاف باتجاه رأي أبي مالك مما أغضب أبو عمير

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فقاطع وهجر هشاما .[٩]

هشام بن الحكـــــــــم :

لهذا النص دلالات بالغة الأهمية في مسألة تعامل مدرسة أهل البيت مع أحـــاديث الكـــافي جميعا، فإذا اعتبرنا أن هشام بن الحكم من أبرز تلاميذ الإمام جعفر بن محمد الصادق (الذي دعا له أن يؤيده الله بروح القدس لأنه يدافع عن منهج أهل البيت سلام الله عليـــهم) . وإذا أخذنـــا بالاعتبار أنه ظل شخصية مثيرة للجدل بين مفكري عصر التدوين الإسلامي الشيعة ، وأحد أولئك الذين طاردتهم الخلافة العباسية طويلا ، ولم تستطع القبض عليهم ، بسبب من أفكـــارهم وحدهـــا ولمجرد تصديهم للرد على أعداء أهل البيت خاصة في زمن الإمام موســـى الكـــاظم (ع) ، وإذا علمنا أن كتب الطرف الآخر مليئة بأفكار هذا المفكر مشوهة إلى أبعد الحدود كأحد الذين اتـــهموا بأنهم قالوا بالتجسيم [٩] (أن الله سبحانه له جسم وأبعاد) ، وأن كل كتبه العديدة ومنها كتابه الـــهام (في الألفاظ) قد أحرقت واختفت آثارها ، وأن نهايته المأساوية أن يموت ويدفن سرا في الكوفـــه هاربا من أيدي أعوان الخليفة هارون الرشيد عام ١٦٠ هـــ ، لكل هذا يمكن أن ندرك أهمية رأيه في الكافي حول تفسير حديث عن الإمام علي ويفترض أنه منقول عن رسول الله (ص) ، والـــذي يبدو (أي التفسير) عقلانيا ودقيقا ومقبولا ، بعكس ما يبدو من تفسير بن أبي عمير البالغ التعسف ، وهما من نفس المدرسة .

هذا المفكر القائد السياسي يحتل في أصول الكافي مكانة هامة ، ليس لأنـــه روى بعـــض الأحاديث ، بل لأن بعضا من أهمها ، وخاصة في وسائل علم الكلام الإسلامي ، الذي اختصت به الأصول ، يخاطب به هشام من قبل الإمام الكاظم مباشرة في حديث شهير [١٠] وبالغ الدقة عـــن أهمية العقل ومكانته في القرآن . ولعله من القلائل في تاريخ الفكر العربي والإسلامي ممن أخذت أفكارهم من كتب غيرهم عنهم بحيث اعتبرت إلزاما تهم لأعدائهم كأنها أفكارهم بالذات ، وهو ما اعترف به بعض الباحثين المحدثين [١١] .

وربما كان (رحمه الله) من القلائل في عصرهم ، الذين أعلوا مكانة العقل فـــي البحـــث الفقهي تبعا لتلمذته على الإمام الصادق ومن بعده الكاظم ، والذين تصدوا للجميع في انحرافاتـــهم الفكرية عن الإسلام من المحدثين المتزمتين أومن العقلانيين أتباع السلطة ودعاة القمـــع الفكـــري رغم عقلانيتهم وأخذهم عن مدرسة أهل البيت ، وأعني بهم المعتزلة ، لهذا لم يتح له أن يـــدرس بإنصاف أبدا ، واحتل في (الملل والنحل) الشهير (للشهرستاني) مكانة المتهم ، بدلا من وضعه في مكانه الذي يستحقه تبعا لما روى عنه في الكافي مما يعتبر من أجمل ما قيل عن مكانة العقـــل

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

في الإسلام .

نظرة إلى مضمون الأصول :

لأن هذا الكتاب يأتي في منتصف سلسلة من المدونات التي عنيت مدرسة أهل البيت منذ البداية على اعتمادها التدوين أسلوبا في حفظ الأفكار [١٢] من الضياع والتي ربما كانت نوعا من التحدي المعلن لمنهج الخلافة الراشدة في منع تدوين الحديث النبوي في إطار الصراع التاريخي الشرس بين الأجنحة الصحابية على خلافة الرسول ، يرجح الباحثون أن أول من قام بالتدوين عن رسول الله كان الإمام علي بن أبي طالب بالصحيفة المشهورة التي فيها كل حلال وحرام كان يعلقها في قرأب سيفه وقد نقل البخاري منها [١٣] .

تبع الكافي بعد ذلك الكثير من المدونات التي لم تتمكن من النيل من مكانته ، إلا أنها أعملت فيه العقل والتصحيح .

يتألف الكافي من ثمانية مجلدات ، اثنان منها في الأصول ، وسوف نكتفي في هذا البحث بتحديد ملامح إسهام الإمام الصادق في أبواب منها :-العقل والجهل - فضل العلم - بعضا من مباحث علم الكلام الأساسية في كتاب التوحيد وخاصة في : الحدوث - والكيفية - وأبطال الرؤية والجسمية - الأسماء والمعاني - البداء - الخير والشر - الجبر والقدر -الحجة على العباد وما يتبعها من نظرية الأمامة (باختصار شديد) الحقيقة المحمدية والإيمان - التقية والإيمان - والسلوك الاجتماعي الحسن : بمعنى نظرة الإمام في تحديد ضوابط السلوك الإنساني في المجتمع بما في ذلك العشرة والمخالطة ، وأخيرًا الدعاء إلى الله وأهميته .

العقل :

يعرف الإمام الصادق العقل بلوازمه المتحدة معه ، فالعقل لا يقود إلا إلى الخير ، وعندما سئل هل ما كان لدى (معاوية الخليفة الأموي)) عقلاً قال : تلك النكراء ، تلك الشيطنة ، وهي شبيهة بالعقل وليست بالعقل [١٤] . العقل يقود إلى عبادة الله حكماً في رأي الإمام ، يتصل به التصديق والرجاء والعدل والرضا والشكر والطمع في النجاة والتوكل والرأفة والرحمة والعلم والفهم والعفة والزهد والرفق والرهبة والتواضع والتؤدة والحلم والصمت والاستسلام (ضد الاستكبار) والتعليم (ضد الشك) (...) وصولاً إلى الحكمة والوفاء والسعادة والتوبة [١٥] وإذا نظرنا إلى حديث الإمام هذا وجدنا أنه يلخص بمستلزمات العقل سلسلة القيم الأخلاقية المتعارف عليها لدى معظم أبحاث علم الأخلاق في الفلسفة اليونانية ومتفرعاتها وصولاً إلى باحثي الأخلاق في المدرسة المثالية الحديثة [١٦] .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يحدد الإمام ثمانين تابعاً أو لازماً للاتصاف بالعقل في الإنسان ، ويضيف أن هذه الخصال كلها من أجناد العقل ، لا تجتمع إلا في نبي أوصى نبي أو مؤمن قد امتحن الله قلبه للإيمان ويتابع قائلا في حديثه الهام " وأما سائر موالينا فان أحدهم لا يخلو من أن يكون فيه بعض هذه الجنود حتى يستكمل وينقّى من جنود الجهل فعند الله يكون في الدرجة العليا مع الأولياء والأوصياء .."

والحقيقة أن تحديد الصفة بضدها واعتبار أن القيمة الأخلاقية تحدد بضدها حكماً وإنها وسط بين متطرفين ، وردت في أحاديث عديدة لرسول الله وآيات القرآن الكريم ، ولعل أبرز تلك الأحاديث النبوية ، ما ورد على لسان الصادق في الكافي ، وان لم يكن مرفوعاً إلى الرسول (تبعا للقاعدة الأساسية التي وردت في مقدمة هذه الدراسة) ، يقول الإمام الصادق " أكمل الناس عقلا أحسنهم خلقا " في توحيده المطلق بين العقل والأخلاق الإيجابية ، وكما هو معروف فان كثيرًا من أحاديث الصادق في الأصول وردت في كتب السنة التي أشرنا إليها نقلا عن رسول الله (ص) .

لقد جاء حديث الإمام موسى الكاظم المكمل لحديث والده براوية هشام بن الحكم ، ليس بكونه يلخص مكانة العقل والعاقلين في القرآن الكريم وحسب ، بل بتوصيفه للسلوك العقلاني في الحياة عامة (وليس في الإسلام فقط) فعلى سبيل المثال (يا هشام من سلط ثلاثاً على ثلاث فكأنما أعان على هدم عقله : من أظلم نور تفكره بطول أمله ومحا طرائف حكمته بفضول كلامه وأطفأ نور عبرته بشهوات نفسه فكأنما أعان هواه على هدم عقله ومن هدم عقله ، أفسد عليه دينه ودنياه [١٧] ويقول :" يا هشام الصبر على الوحدة علامة قوة العقل ، فمن عقل عن الله اعتزل أهل الدنيا والراغبين فيها ورغب فيما عند الله ، وكان الله أنسه على الوحشة وصاحبه في الوحدة وغناه في العيلة ومعزه من غير عشيرة ".

هذا التكثيف للسلوك العقلاني في الوحدة والزهد عند الإمام الصادق والكاظم ، أدى إلى أن ينحو مستشرقون وباحثون إلى إلصاق صفة (الرواقية) [١٨] بهما وإذا أردنا الإنصاف في تحليل أسباب هذا التكثيف (ومع أن عصر الإمامين وحياتهما اتسمت بالملاحقة والحصار والسجن من قبل السلطة العباسية فان العقل غالباً ما يقود إلى التأمل العميق وبالتالي احتقار هذه الدنيا والنظر إلى العالم الآخر الأكمل والأجمل .. عالم المثل الذي شرحه سقراط وأفلاطون ببراعة ، وجاء الإسلام ليقدم وصفاً رائعاً له في القرآن الكريم ، عند الله في جنة الخلد ، حيث منتهى المعرفة والسعادة بالعقل .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يقودنا حديث الإمامين (رض) إلى فكرة (الصفوة) في بحث امتلاك العقل ، ذلك أن العقلانية لا تأتي للكثرة أو العامة (وقد ذم الله الكثرة فقال :" إن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله "الانعام (٦) ثم مدح القلة فقال :" وقليل من عبادي الشكور "[١٩]. سبأ(٣٤)، باتصال مقولة (الصفوة) بمقولة (الزهد) في مسألة العقل تبرز بجلاء جذور مشروعية طرح مقولتي التقليد والولي الفقيه في الإسلام متصلين بفكرة الإمامة ونشوء المؤسسة الدينية التي تقود المجتمع روحيا وسياسيا. ورغم سعي مدرسة الأئمة إلى تأسيس المدينة الفاضلة الإسلامية بقيادة الحكماء والعلماء الصفوة فقد عرف عن الصادق لباسه الفاخر الذي يخفي تحته لباس الزهد الخشن ، باعتبار أن لكل حالة لبوسها .

فضل العلـــــــم :

من اللافت للناظر في هذا الباب أن الغالبية العظمى من أحاديثه وردت على لسان الإمام الصادق ، خاصة حديث رسول الله الأشهر " طلب العلم فريضة على كل مسلم ألا إنّ الله يحب بغاة العلم " [٢٠] يتلوه الحديث الآخر " إذا أراد الله بعبد خيراً فقهه في الدين " فقد وضع علم الدين في رأس قائمة العلوم وما خلاهن فهو فضل ، وصاحبه في الشرع فاضل لاعالم ، كما روى عن الرسول (ص). وإذا تابعنا تصعيد النصوص وصولا إلى قوله عن رسول الله" إن العلماء ورثة الأنبياء" .. ثم إلى توصفيه ماهية العالم " بأنه من صدق فعله قوله ومن لم يصدق فعله قوله فليس بعالم " لمسنا اقتران النظرية بالتطبيق عنده حكماً (فيبتعد عن السفَه والغرة) كما يرويه عن الإمام علي (رض) .

يقول الإمام علي (رض) :" ألا لاخير في علم ليس فيه تفهم ، ألا لا خير في قراءة ليس فيها تدبر ، ألا لا خير في عبادة لافقه فيها ، ألا لاخير في نسك لاورع فيه " ويتابعه الصادق عن الإمام علي في حديثه الهام " للعالم ثلاث علامات : العلم والحلم والصمت ، وللمتكلف ثلاث علامات : ينازع من فوقه بالمعصية ويظلم من دونه بالغلبة ، ويظاهر الظلمة (بمعنى معاونة الظالمين على الظلم للعباد) .حتى نصل إلى جوهر التوصيف لسلوك العالم الحقيقي أنه مع القيم الأخلاقية العليا والعدالة في قلبها وإلا كان متكلفاً لايستحق أن يحمل صفة العالم .

من هذا المنطلق يمكن أن نستقي من الأيديولوجيا الإسلامية وببساطة تعريف (المثقف) المنطبق أو المتلازم مع مفهوم العالم : فهو بالدرجة الأولى يمتلك موقفاً إيجابياً من الحياة فهو مع الحقيقة والعدالة وضد السلطة الظالمة مهما كلفه ذلك ، وإلا سقطت عنه صفة العلم أو الثقافة ومن هنا يمكن اشتقاق تعريف للثقافة " بأنها موقف من الحياة في جوانبها المتعددة ، هذا الموقف

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يتسم بالإيجابية والالتزام بالقيم " وبذا يكون المثقف غالباً تبعا لرأي الإمام الصادق فيما نقل عنه من الكافي هو من يلتزم الحق والعدل، وإلا وسم بأنه متكلف لا يستحق أن يحمل لقب عالم مثقف.

الإمام الصادق عن جده الإمام علي يعطي العالم أجرًا أعظم من أجر الصائم القائم الغازي في سبيل الله [٢١] وبالتأكيد فهو يعني العالم بتعريفه الآنف الذكر . وللحقيقة فان توصيفاً كهذا يمنح العلماء مكانة لا يدانيهم فيها أحد ، مما يؤهلهم لقيادة الجماهير فعلاً . ولقد أسس الإمام الصادق بهذا الاعتبار لرسم طبيعة المؤسسة القيادية للأمة من خلال مثقفيها الحقيقيين ، وهو عمليًا ما التزمت به مؤسسة مدرسة أهل البيت طوال تاريخها ، فمن لا يحمل صفات كهذه فعلاً لم يكن بإمكانه تولي المرجعية وقيادة الجماهير ، بحيث يكون المرجع متمتعاً بصفات بالغة الاتسام بالمسؤولية المطلقة في حمل النظرية والتطبيق ، المراقب من قبل الناس حتى يتمكن من الاستقطاب الحر وتحقيق القيادة الفعلية بالاختيار الطوعي له دون إكراه ، استنادا إلى القواعد الموضوعة من قبل الإمام جعفر بن محمد ونقلاً عن الإمام علي .

لهذا حدد أبو عبد الله (رض) حقوق هذا العالم ومدى الفجيعة بفقده ، حتى أنه يقول:" أن الله عز وجل لا يقبض العلم بعد ما يهبطه ولكن يموت العالم فيذهب بما يعلم فتليهم الجفاة فيضلون ويضلون ولا خير في شيء ليس له أصل " ثم يوصي بمجالسة هذا العالم واللجوء إليه عن قول رسول الله " مجالسة أهل الدين شرف الدنيا والآخرة " ويوصي بسؤاله " أن هذا العلم عليه قفل ، ومفتاحه المسألة " أو " تذاكر العلم بين عبادي مما تحيا عليه القلوب الميتة إذا هم انتهوا إليه في أمري " ثم يلح على العلماء ببذل علمهم للناس حين يقول " قرأت في كتاب جدي علي (ع) أن الله لم يأخذ على الجهال عهدا بطلب العلم حتى أخذ على العلماء عهدا ببذل العلم للجهال ، لان العلم كان قبل الجهل "، ثم حذر العلماء أو المدعين من القول بغير علم حين نقل عن رسول الله " من أفتى الناس بغير علم (..) فقد هلك وأهلك ".

الصادق يشدد على ضرورة العمل على هدى العلم ، وإلا كما يقول : فان العامل على غير بصيرة كالسائر على غير الطريق لا يزيده سرعة السير إلا بعدا، "وكم هو دقيق وشفاف حديثه التالي " لا يقبل الله عملا إلا بمعرفة ولا معرفة إلا بعمل فمن عرف دلته المعرفة على العمل ومن لم يعمل فلا معرفة له ، ألا إن الإيمان بعضه من بعض " محددا بدقة رضي الله عنه التخوم بين النظرية والتطبيق وإصراره على تلازمهما ، مما تصر عليه الأيديولوجيات الحديثة في أن الاختبار الحقيقي للنظرية واقعيتها وصحتها وذاك يتحقق في مجال التطبيق .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أخيرًا :يصل الإمام الصادق إلى نتيجة مؤداها أن العلم وبالتالي تعليم الناس يجب أن يقصد به الخير المطلق وليس الشهرة والنقود .. وأن يكون كل ذلك في سبيل الله يقول " من أراد الحديث لمنفعة الدنيا لم يكن له في الآخرة نصيب " ولكن جوهر ما يرى إليه الإمام يبدو اكثر وضوحا في حديثه التالي (عن رسول الله (الفقهاء أمناء الرسل ما لم يدخلوا في الدنيا قيل يا رسول الله : وما دخولهم في الدنيا : قال أتباع السلطان فإذا فعلوا ذلك فاحذروهم على دينكم ".

هذا القول الذي ينقله الصادق لم يختلف عليه اثنان من المسلمين ، ولكن الخلاف استعر في مسائل شائكة بين الأطراف الإسلامية : في مسألة الموالاة للسلطان أو الخروج عليه أو نصحه أو السكوت وكان ذلك من أكبر المسائل الخلافية التي شطرت المسلمين إلى ضفتين .وفي كل الأحوال لا يتمتع أي عالم دين أو فقيه أو مطلق مشتغل بالعلم بأي احترام من قبل الناس (أو غالبيتهم) إذا كان ذيلا للسلطان ، خاصة إذا كان هذا السلطان ظالماً : فالمثقف يحدد موقعه حيث تكون الغالبية العظمى من الناس ، وهو معارض للنظام القائم بطبيعة الحال : سلبًا أم إيجاباً، بمعنى ناقداً ومصححًا إذا كان النظام عادلاً نسبيًا ، أو مهاجمًا ناصحًا بعلمه إذا كان ظالماً (وهو عمليًا طبيعة الغالبية الساحقة.من الأنظمة الإسلامية تاريخيًا وحاليًا)، لهذا فان مصداقية حديث كهذا تبدو جلية في توصف موقع العالم بين الناس في مرحلة بعد العلماء عن السلطة – وهم غالباً بعيدون عنها – يوثق في دينهم إذا كانوا مع الغالبية الساحقة فقط من الناس ، وإلا فانهم مرفوضون مشكوك بهم وبدينهم .

ولكن : ألا يحق للعالم أن يأخذ أجرًا على اشتغاله بالعلم والتعليم ؟ أو بمعنى آخر : الا يجوز التفرغ للعلم من وجهة نظر الشرع ، ويكون من حق العالم على المجتمع تأمين معيشته ؟ ثم ، ألا يتناقض الاشتغال بهموم الناس الاجتماعية والسياسية مع هذا التفرغ وما يستلزمه من جهد لا يترك للمشتغل فراغًا كبيرًا معطيه للناس ؟

أسئلة عديدة يطرحها باب فضل العلم في كتاب الكافي ، ومثيرة للجدل في آن معاً لقد هدف الإمام الصادق فيما حدث به الوصول إلى الكمال الإنساني أو مقاربة هذا الكمال ، لذا لا يجد الباحث فيه الكثير من التفاصيل الصغيرة والتي تمتلك أهميتها الكبيرة أيضاً.

التوحيد وجذور علم الكلام :

يبدو الإمام جعفر بن محمد وآباءه وأبناءه (رضي الله عنهم جميعاً) مراجع للحوار حول أمور إسلامية شائكة في مجمل نصوص هذا الباب في كتاب الكافي . ويعجب الباحث من طبيعة روح ذاك العصر ، الممتد عبر قرون ثلاثة للهجرة حتى غياب الإمام المهدي (رض) ، وخاصة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مرحلة نهاية القرن الأول وحتى نهاية عصر الإمام علي الرضا (رض) في عصر المأمون ، بما اتسمت به من تصاعد الحوار الأيديولوجي بين الاتجاهات المختلفة بما في ذلك غير الإسلامية منها في الدولة الإسلامية المزدهرة ، ومدى مساهمات الإمام الصادق في تحديد الأصول الأيديولوجية للإسلام ، من خلال توضيح أبلغها أهمية وهو التوحيد .

لقد كان لمدرسة أهل البيت الريادة في هذا الشأن ، ما في ذلك ريب [٢٢] بدءاً من مداخلات الإمام علي (رض) عند توليه إمارة المؤمنين عام ٤٥ هـ، وصعود الجدل بين الأجنحة المتصارعة حول نظرية الحق ، ومن هو على حق بينهم .

هذا الحوار الفكري ولّد مقولات شملت معظم الجزء الأول من أصول الكافي ، وكان للصادق فيها الجزء الأوفى ، ولتلميذه الابرز هشام بن الحكم الذي يقرأ الباحث اسمه كثيرًا. وكم هو شاق وممتع معًا البحث في ذات الله والحوار حول الذات والتوحيد : حدوث العالم واثبات المحدث أو الشيئية في الله ، والكون والمكان والنسبة والكيفية ، والرؤية والأسماء والصفات والتجسيم والتشبيه ، والعرش والكرسي والروح والبداء والمشيئة والإرادة والا بتلاء والاختيار والجبر والتفويض والخير والشر ، وأخيرًا حجة الله على خلقه دخولاً إلى نظرية (الإمامة) وكم يبدو أحياناً (وخاصة في عصرنا) أن الإيمان يحتل المكانة الابرز في تحديد المواقف من تلك الحوارات التي تملأ باب التوحيد . خاصة عندما نجد أن الإمام يستخدم البديهي والواضح في تعليل الشائك والمشكل من مقولات التوحيد .الامام يحبذ التوقف أحيانا في مواجهة توصيف بالغ الدقة لأحكام قيمة عن الذات والصفات والجبر والاختيار وأن المسألة برمتها لدى الإمام الصادق (رض) تختص بالصفوة من البشر في كل الاتجاهات .

كان المحاورون من الصفوة حقا .. زنادقة كانوا أم دهريين أم قدريين ، وبدت أحاديثه في الجبر والاختيار تتسم بالعموميات الإسلامية رغم دقتها وحرصه فيها على الوسطية أو المنزلة بين المنزلتين وعدم إصدار الأحكام المتعسفة ، وأخيرا استمرارية الحوار واللقاء مع محاور ملحد مثل عبد الكريم ابن أبي العوجاء على سبيل المثال ، لنقرأ نصا كهذا [٢٣] " فلما كان من العام القابل التقى معه في الحرم فقال له بعض شيعته : أن ابن أبي العوجاء قد أسلم فقال : الصادق : هو أعمى من ذلك ولا يسلم ، فلما بصر ابن أبي العوجاء به قال : سيدي ومولاي ، فقال له (رض): ما جاء بك إلى هذا الموضع ، فقال عادة الجسد وسنة البلد ولننظر ما الناس فيه من الجنون والحلق ورمى الحجارة ، فقال له : أنت بعد على عتوك وضلالك يا عبد الكريم ، فذهب عبد الكريم يتكلم فقال له (عليه السلام) : لا جدال في الحج ونفض رداءه من يده وقال : إن

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يكن الأمر كما نقول وليس كما نقول نجونا ونجوت ، وان يكن الأمر كما نقول وهو كما نقول نجونا وهلكت ، فأقبل عبد الكريم على من معه فقال : وجدت في قلبي خرازة (وجع) فردوني ، فردوه فمات " .

إن ابرز ما ينبهُ إليه النص هو ثقة الآخرين بالإمام الصادق واعترافهم له بأفكارهم ورغبتهم بالحوار معه تحديداً في مقر إقامته في الحجاز (مكة أو المدينة) في مواسم الحج سنة اثر أخرى ، ثم ويقرر النص السالف أن نهاية الحوار جاءت مع نهاية الرجل الذي جاء لمجرد السخرية بطقوس الحج وبدلالة اكثر بروزاً على يقين الإمام الصادق من استحالة إمكانية إيمانه وأن الحوار بينهما كان من طرف عبد الكريم لمجرد الاحتكاك والمماحكة ، فجاءت كلماته الأخيرة للحسم والتي بدأها بجملة (لا جدال في الحج) وما تتسم به من صبر وتحمل وأدب جم .

في مسألة الحدوث (وهي أولى مسائل التوحيد) ومن جملة مواضيع الحوار مع الملحد السالف الذكر ، نجد في الصادق محاورا يتسم بامتلاك منطق الجدل الذي عرفناه في مدرسة الثلاثي اليوناني الشهير (سقراط – أفلاطون –أرسطو) [٢٤] عندما وجه سؤالا دقيقاً هو (أمصنوع أنت أم غير مصنوع) ، فأجابه : بل أنا غير مصنوع فقال الصادق : فصف لي لو كنت مصنوعاً فكيف تكون ، فبقى عبد الكريم ملياً لا يجد جواباً وولع بخشبة كانت في يده وهو يقول : طويل عريض عميق قصير متحرك ساكن ، كل ذلك صفة خلقه فقال له الصادق : فان كنت لم تعلم صفة الصنعة غيرها فاجعل نفسك مصنوعاً لما تجد في نفسك مما يحدث من هذه الأمور ، فقال له عبد الكريم : سألتني عن مسألة لم يسألني عنها أحد قبلك ولا يسألني أحد بعدك عن قبلها ، فقال الصادق : هبك علمت انك لم تسأل فيما مضى فما علمك أنّك لا تسأل فيما بعد ، على أنك يا عبد الكريم نقضت قولك لأنك تزعم أن الأشياء من الأول سواء (أي لا صانع ولا مصنوع) فكيف قدمت وأخرت ... الخ الحديث " .

كان استخدام وسيلة (الإيقاع في التناقض) بين المتحاورين جزءاً من طبيعة الذكاء الإنساني وليست تقنية اتصفت بها المدرسة الفلسفية اليونانية وحدها ، ولعل امتلاك الإمام الصادق لها تبدو كأحد ابرز معالم شخصيته التي أهلته فعلا ليكون معلّم عصره .

على أية حال لم تكن معالجة مقولة الحدوث هي المسألة الابرز التي واجهت مدرسة الأئمة ، والإمام الصادق (رض) خاصة ، فقد جاءت مسألة التجسيم (كيفية الذات الإلهية والمكانية) لتتفوق عليها إشكالياً .

الحديث التالي للامام يستحق أن يكون مدخلاً للنقاش " في قوله تعالى:ما يكون من

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم " فقال : هو واحد وإحدى الذات ، بائن من خلقه ، وبذلك وصف نفسه (وهو بكل شيء محيط) بالإشراف والإحاطة والقدرة (لايعزب عنه مثقال ذرة من السماوات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا اكبر) بالإحاطة والعلم لا بالذات لان الأماكن محددوه تحويها حدود أربعة فإذا كان بالذات لزمها الحواية".

وفي حواره مع ابن أبي العوجاء في سؤاله عن المكانية نقرأ هذا الكلام المفصل للإمام جواباً على : أهو في كل مكان ؟ أليس إذا كان في السماء كيف يكون على الأرض ؟ وإذا كان في الأرض كيف يكون في السماء ؟ يقول الإمام : إنما وضعت المخلوق الذي إذا انتقل من مكان اشتغل به مكان وخلا منه مكان ، فلا يدري في المكان الذي صار إليه ما يحدث في المكان الذي كان فيه، فأما الله الملك الديان فلا يخلو منه مكان ولا يشتغل به مكان ولا يكون إلى مكان اقرب منه إلى مكان " .

ويقول : من زعم أن الله من شيء ، فقد جعله محدثا ، ومن زعم انه في شيء فقد جعله محصوراً ومن زعم انه على شيء (أي على العرش) فقد جعله محمولا".

ثم أن الإمام في أحاديثه يعرّف بالكرسي كما نرى فيما يلي :" سألت أبا عبد الله (ع) عن قول الله عز وجل (وسع كرسيه السماوات والأرض) فقال يافضيل كل شيء في الكرسي السماوات والأرض وكل شيء في الكرسي ".

ويفسر الإمام (رض) العرش بالعلم حين يقول " حملة العرش والعرش (العلم) ثمانية منا وأربعة ممن شاء الله "

وينطلق الإمام ابعد من ذلك في التأويل في قوله الله عز وجل " وكان عرشه على الماء " رافضًا بشدة أن الله كان محمولاً لأنه بذلك يكون الذي يحمله أقوى منه ليصل إلى أن " الله حمّل دينه وعلمه الماء قبل أن يكون أرض أو سماء أو جن أو أنس أو شمس أو قمر (...) "

وإذا انتقلنا إلى مسألة الروح نجد الإمام اكثر توضيحاً في تحديد ماهية الحدوث المقاربة أو الاندماج بالإنسان " سألت أبا عبد الله (ع) عن قول الله عز وجل " ونفخت فيه من روحي " كيف هذا النفخ : فقال : إن الروح متحرك كالريح وإنما سمي روحًا لأنه اشتق اسمه من الريح وإنما أخرجه عن لفظة الريح لان الأرواح مجانسة الريح ، وإنما أضافه إلى نفسه لأنه اصطفاه على سائر الأرواح ، كما قال لبيت من البيوت : بيتي ، ولرسول من الرسل خليلي ، وأشباه ذلك وكل ذي مخلوق مصنوع محدث مربوب مدبر ".

الأسئلة كما نرى شائكة ودقيقة لتفسير قرآن له ظاهر يشير إلى الأنسنة والتجسيم للإله

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

سبحانه ، في ذات الوقت الذي يرفض فيه أو ينفي هذه الأنسنة وهذا التجسيم ، ولابد للأئمة أن يجيبوا ، ولابد من اعطاء تفسير .لقد تطور الزمن نحو صعود علم التفسير والحديث النبوي والحضارة الإسلامية كرافعة واقتراب عصر الترجمة وبدءالتلاقح الحضاري مع أمم كثيرة منذ مئة سنة على الأقل في زمن تصاعد الفتوحات. فإذا قيل انه كان مطروحا في زمن الرسول والصحابة ولم يجيبوا عليه وجب السكوت عليه في الأزمان اللاحقة لمجرد انه لم يكن مطروحاً في زمنهم ، وقع العقل الإنساني في فخ التحديد والقسر ، هذا العقل الذي يرفضهما ويحلق بعيدًا في آفاق المعرفة هذا إذا سلمنا جدلاً أن الأمور لم تطرح في زمن الرسول .

والحقيقة أن جذور علم الكلام الإسلامي ، في أصول الكافي تبدي احتراماً حقيقياً للعقل الإنساني بنفس الطريقة التي وردت في القرآن الكريم ولخصها حديث الإمام موسى الكاظم لهشام بن الحكم ، هذا الاحترام البالغ لا يمكن أن يناقض المسار باللجوء إلى قسر العقل لأمور نقلية لا تنفق معه أو حتى لمسألة التوقف والسكوت فالعقل ،لايقبل التعامل مع التوقف بأي منطق معروف ومع ذلك فهل في الأحاديث التي اختيرت كأمثلة وأجوبة شافية على تساؤلات مؤرقة؟ كالتي قرأنا؟

إذا عدنا إلى ذلك الزمن ومشكلاته الفكرية وجدنا أن مقولة (وحدة الوجود) كانت مطروحة بقوة في الساحة العلمية الإسلامية منذ بروز العرفان الإسلامي أيام الحسن البصري. هذه المقولة تعني إن الله والكون شيء واحد : كل الكون في ذات الله ، والله موجود في كل شيء.. الأشياء ذرات من الغبار في المطلق العظيم سبحانه ، الفلسفة الهندية القديمة والعرفان الإسلامي وصلا إلى حل المسألة قطعا عبر هذا المنهج الفلسفي ، وكان ذلك مرفوضا حكما من قبل فقهاء لايستطعيون تجاوز ظاهر النصوص القرآنية ، مادام تفسير رسول الله ، الناطق بالقرآن ، ليس متوفرا بين الأيدي .

في سياق البحث عن عقيدة الإمام جعفر بن محمد الأكيدة في هذا المجال ، فإن الأحاديث المنقولة لا تعطي الأجوبة الشافية لأسباب وجيهة ، أبرزها : التقية ومسايرة المزاج العام المعادي سعيًا إلى كسبه بالحسنى والوسطية ، فعلى سبيل المثال : في حديث ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم يستخدم الإمام عبارة (بائن من خلقه ، (أي مفارقهم) لا يندمجون به أو يندمج بهم وبذاك وصف نفسه " يعود الإمام إلى القرآن ظاهرًا لكي يستخدم ذات المصطلحات التي يتعصب لها أهل الظاهر الفج (وبذاك وصف نفسه) .

إذن (هو بكل شيء محيط) بالإشراف والإحاطة والقدرة والعلم لا بالذات ، فإذا علمنا

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أن الإمام الصادق يقر في أحاديث أخرى ، أن علم الله لا ينفصل عن ذاته رغم أن أسماءه ليست هو، وألا كان هناك إلهين قديمين ، فان إحاطة الله سبحانه بالأشياء بذاته أو بعلمه يعطي نفس المعنى ولا يكون الله بائن من خلقه إلا بشيء واحد فقط هو انهم ليسوا من طبيعته التكوينية اللطيفة : فهم مجرد مادة محدودة الصفات والبداية والنهاية (حادثة) ، بينما تستحيل المفارقة (بالمكانية) للمطلق ، لأنه مطلق بحد ذاته واعتقد أن هذا هو التعليل الممكن الوحيد ، رغم نفي الامام (الحواية) في حديثه .

المنطق المحض في العقل يقود إلى نتيجة كهذه ، ومعروف أن الصادق اتصف (بالعرفانية) و مخاطبة الناس على قدر عقولهم ومحاولة كف الأذى عن نفسه معا ، وقد أدى ذلك إلى تأثر وضوح علم الكلام الإسلامي في أصول الكافي ، بل وربما كان ذلك سببًا أساسيًا في انعدام الاهتمام المتوجب سندًا بأحاديث هذا القسم .

إن رفض الإمام لمسألة المكانية في أجوبته على تحديد الأمكنة ، يتعلّق بأن المطلق هو في اللامكان واللا محدود لان المكان يفترض المحدودية والكيف ، بينما الله خالق الكيف والمكان معاً وهو مبدع الزمان والكون أو الحدوث والنهاية لهذا جهد الإمام الصادق في دحض استخدام المصطلح اللغوي المجرد وتطبيقاته بفجاجة في أبحاث الإلهيات ، هذه المصطلحات اللغوية (التي لا بديل لها) تبدو ، إمّا مفسرة أو مرفوضة بدقتها اللغوية كتطبيق على تفسير آيات القرآن الكريم ، أو توصيف الذات الإلهية وهو ما يرجح سعي الإمام إلى التنبيه له .

الذات والأسماء :

يقول الإمام : "اسم الله غيره وكل شيء وقع عليه اسم شيء فهو مخلوق ما خلا الله فأما ما عبرته الألسن ، أو عملت الأيدي فهو مخلوق ، والله غاية من غايته والمغيى غير الغاية والغاية موصوفة وكل موصوف مصنوع وصانع الأشياء غير موصوف بحد مسمى ، لم يتكون فيعرف كينونيته بصنع غيره ولم يتناه إلى غاية إلا كانت غيره، لا يزلّ من فهم هذا الحكم أبدًا، وهو التوحيد الخالص، فارعوه وصدقوه تفهموه بإذن الله ، من زعم انه يعرف الله بحجاب أو بصورة أو بمثال فهو مشرك ، لان حجابه ومثاله وصورته غيره ، إنما هو (واحد متوحد فكيف يوحده من زعم انه عرفه بغيره)، وإنما عرف الله من عرفه بالله فمن لم يعرفه فليس يعرفه ، إنما يعرف غيره (ليس بين الخالق والمخلوق شيء) والله خالق الأشياء لا من شيء كان ، والله يسمى بأسمائه وهو غير أسمائه فالأسماء غيره"[٢٧]

الذات الإلهية أكبر من كل وصف يحمله الاسم ، حتى من احتياجنا واحتياجه سبحانه

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

للتواصل معنا عبر الاسم والمصطلح ، لهذا أصر الإمام على أن أسماءه هـي غـيره باعتبارهـا محددة لتوصيف حالة إنسانية متوهمة ، ومحاط بها في إطار العقل الإنساني ومفرزا ته اللغوية .

الله سبحانه متصل بالمخلوق (فليس بينه وبين المخلوق شيء) بكيفية لا شيئية لأنه خـالق الأشياء . هذا الحديث منهج التوحيد المطلق فيه من العرفانية التي يجري الإدراك مـن خلالـها بالقلب اكثر من إمكانية الإحاطة بالعقل هذه العرفانية التي قادت إلى علم الكلام الإسلامي بداية .

في هذا السياق يذكر المجلسي في مرآة العقول " أن للحروف المفردة في القرآن أوضاعـا ومعاني متعددة لا يعرفها إلا الأئمة " هذا التوصيف العرفاني للقرآن بأن له ظـاهراً وباطنـاً ، وتخصيص الأئمة بفهم أدق لمضامين السور والآيات ، لم يخالفه النص القرآني في آيات متعـددة في حضه على سؤال أهل الذكر والعلم بمن فيهم رسول الله .[٢٨]

حتى يتم الإحاطة بمفاهيم تعجز المفردات اللغوية عن توصيفها والإحاطة بها فلا يمكـن أن يتم التعامل مع نصوص كهذه للا مام جعفر بن محمد (رض) إلا من خلال إمكانيـة الاتصـال المباشر بالله الذي تعجز اللغة عن توصيفه ، ذلك أن الإنسان (محدود بمعرفة الله بغـيره). كمـا يقول الصادق ، والإمام يصر في الآن ذاته على أن :(كيف يوحده من زعم انه عرفه بغـيره). ويذكر أن أفلاطون عندما قدم اسطورته الشهيرة عن (الكهف)، شـرح فيـها علـى أن البشـر محبوسون في كهف أجسادهم وعالمهم ولا يبصرون عالم المثل (المطلق) إلا من خلال انعكـاس الظلال على جدران الكهف ، واستثنى الصفوة الذين قدروا على الانفلات من السجن هذا والدخول في رحاب ذاك العالم ، هذه الأسطورة توصف هؤلاء بأنهم إن تمكنوا وعادوا وصفوا للآخريـن مشاهداتهم ، لكن الآخرين لن يروا إلا ظلالا للمعرفة اليقينية وليست المعرفة ذاتها. منطقياً لابـد من قبول فكرة أن الصفوة وحدهم ومنهم الأئمة والعرفانيون يمتلكـون أدوات تلـك المعرفـة . والصادق يسعى في أحاديثه الى تقريب المسألة بغرض صياغة فهماً أفضل. أحيانا، وفي أحيـان أخرى يبدو ملتزمًا بالوسطية ومحتاطًا ، وهو يتوقف في بعض الأحيان ، كما في هـذا النـص ، الذي ورد في سياق حواراته العديدة مع أصحاب الإيديولوجيات النقيضة للإسلام في إطار أجواء الحوار السائدة في عصره وتظل الإشكالية قائمة رغم كل شيء يقول:" من نظر في الله كيف هـو ؟ هلك " [٢٩] ويقول إن ملكًا عظيم الشأن كان في مجلس له فتناول الرب تبارك وتعـالىفقد فمـا يدري أين هو".

ويقول: "سمع ابن جابر رجلا في مسجد المدينة يتكلم بالقدر(من القدريين) والناس حولـه

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فسأله : يكون في ملك الله تبارك وتعالىما لا يريد ؟ قال فاطرق طويلاً ثم رفع رأسه إليّ فقال :يا هذا ، لئن قلت انه يكون في ملكه مالا يريد انه لمقهور ، ولئن قلت لا يكون في ملكه إلا ما يريد أقررت لك بالمعاصي قال فقلت لأبي عبد الله (ع) سألت هذا القدري فكان جوابه كذا وكذا فقال (ع) : لنفسه نظر ، أما لو قال غير ما قال لهلك "[٣٠] هذه الأحاديث لا ريب تشجع على التوقف عن التفكر في كيفية الذات الإلهية ، ولم يمنع ذلك على اية حال من حدوث هذا التفكر بل وإطلاق أحكام تقريرية عن الذات . لقد انصبت الاتهامات في كتاب الكافي على مجموعة من تلامذة الإمام أبرزهم هشام بن الحكم ، ومنهم هشام الجواليقي ، ومؤمن الطاق (محمد بن النعمان) وغيرهما ، ولا نعني بذلك أن الجامع (الكليني) ينحو إلى ذلك الاتهام بقدر ما تعبر الأحاديث الواردة حول المسألة عن مدى حدة الجدل الدائر ضمن مؤسسة مدرسة أهل البيت يومها ، مما ترك صداه في النصوص ، التي لا يستطيع باحث منصف إلا أن يجزم بأنها متسربة إلى الكافي لم يجر التدقيق بصحتها على قاعدة (بنية النص) مادام السند أصلا لم تثبت صحته ، كما أشرنا في بداية البحث وإنما اخذ به لموافقته الأيديولوجيا الإسلامية من منظور مدرسة أهل البيت .

وفي حديث آخر:"دخلت على أبي عبد الله فقلت له : أن هشام بن الحكم يقول قولاً عظيماً إلا أنني اختصر لك منه أحرفاً ، فزعم أن الله جسم لان الأشياء شيئيان ، جسم وفعل الجسم ، فلا يجوز أن يكون الصانع بمعنى الفعل ويجوز أن يكون بمعنى الفاعل ، فقال أبو عبد الله (ع) : (ويحه) أما علم أن الجسم محدود متناه والصورة محدودة متناهية فإذا احتمل الحد احتمل الزيادة والنقصان ..الخ الحديث [٣١].

مثل هذا الحديث مع الإمام الصادق يجد الباحث شبيهًا له مع الإمام الكاظم (موسى بن جعفر) ومع الإمام الرضا (علي بن موسى) ، ويضاف عادة إلى كلام الإمام الكاظم (رض) كلمة قائله الله) في الرد على هشام بن الحكم بينما اكتفى الإمامان (الوالد والابن) بمجرد التصحيح ، كقول الإمام الرضا (رض) : أن الله لا يشبهه شيء .جوهر القول أن الإمام الكليني بدا محايدًا في نقل النصوص ، لكنه لم يخف انحيازه إلى هشام بن الحكم عندما أورد حديث الإمام الكاظم (رض) في بداية الكتاب في حجية العقل . فقد بادر أقطاب المدرسة إلى الدفاع عن ابن الحكم ومنهم الشيخ المفيد والسيد المرتضى في كتاب الشافي وغيرهما . في هذا المجال تؤخذ أقوال الأئمة الكرام بحرفيتها بما في ذلك الحالة الوسطية التي عبر عنها بدقة الإمام الرضا أصدق تعبير حين قال ((نحن آل محمد النمط الأوسط الذي لايدركنا الغالي ولا يسبقنا التالي إن

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

رسول الله (ص) حين نظر إلى عظمة ربه كان في هيئة الشاب الموفق وسن أبناء ثلاثين سنة، يامحمد(يخاطب السائل) عظم ربي عز وجل أن يكون في صفة المخلوقين"[٣٢] إلى آخر الحديث، إن نمطاً كهذا من النصوص في الكافي لشديد الدلالة على الصراع الدائر حول مؤسسة أهل البيت في زمن الكليني اكثر من دلالته على الجدل الدائر داخلها ومن المعتقد أن آثار الصراع ومنعكساته كان لها أن تتسرب إلى الكافي خاصة في بداية صعود نجم الدولة البويهية الذي عاصره المصنف سنتين في بغداد ، بينما كان قد أنهى كتابه قبل ذلك وإذا عدنا إلى أفكار أشد إثارة للجدل مثل (عبد الله بن سبأ) لشاهدنا آثارها كذلك متسربة في كتب هامة أيضاً مثل : رجال الكشي ، على سبيل المثال ، وغيره [٣٣] بينما اعتبرت الفكرة بحد ذاتها من الأمور المتهافتة [سندا ومتناً] لم تثبت لأي بحث علمي ، وتم رفضها بالإطلاق في إطار مدرسة أهل البيت البحثية ، وعند كثيرين خارجها .

لقد قيل أن تلاميذ الأئمة لم تفهم أقوالهم على حقيقتها ، ربما أضيفت إليها ، أو نشرت حولهم الشائعات لمجرد الرغبة في تحطيم المؤسسة والإساءة إلى الإمام ، وليس نجاف ما وراء ذلك من بصمات للسلطة العباسية تحديداً في زمن صعود حالة ليبرالية من جهة ، ونضج التدوين والترجمة إلى العربية من جهة أخرى .

البـــــداء :

يفسر السيد طباطبائي معنى البداء في كتاب (الميزان) عند تفسيره لآية " يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب " ساعياً لحل إشكالية الصلة بين أنّ العلم بالشيء يحتمّ وجوده ، ولا يمكن العلم بالمعدوم ، فكيف يزول المقدر مادام واقعا سلفا في علم الله ؟ يقول : من المعلوم أن علمه تعالىبالموجودات والحوادث مطابق لما في نفس الأمر من وجودها ، فله تعالىعلم بالأشياء من جهة عللها التامّة وهو العلم الذي لا بداء فيه أصلا ، وله علم بالأشياء من جهة مقتضياتها التي هي موقوفة التأثير على وجود الشرائط وفقد الموانع ، وهذا العلم يمكن أن يظهر (للبشر) خلاف ما كان منه ظاهرا بفقد شرط أو وجود مانع [٣٤] .

الإمام الصادق (رض) يشرع الفكرة في أحاديثه ، فلا يوجد في الكافي عن البداء إلا من خلال الصادق وولديه .. الكاظم والرضا (رض) .

هي فكرة مجردة تتصل بالتوحيد والتنزيه للذات الإلهية وتتعلق بآلية عمله سبحانه بما يمكن التعامل معه (إنسانيًا) فلسفيًا لتحليل السلوك الإلهي تجاه الكون .

يقول الإمام الصادق : أن لله علمين ، علم مكنون مخزون لا يعلمه إلا هو ، من ذلك

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يكون البداء ، وعلم علّمه ملائكته ورسله وأنبياءه فنحن نعلمه "[٣٥] وفي تفسيره للآية السالفة يقول الإمام ((وهل يمحى إلا ما كان ثابتا وهل يثبت إلا ما لم يكن)) .

ولكن بما أن ذلك يتعلق بالقضاء والقدر والدعاء فقد جرى أعمال العقل في إمكانية تغيير ما هو مقّدر في علم الله بواسطة الدعاء (على سبيل المثال) أو هل يمكن أن (يبدو) لله شيء بعدما اتخذ قراره فيغيّر ما كان قرره سابقا ؟

ليس من شك في أن البداء من الأفكار التي لم تحظ بموافقة علماء الجمهور باعتبارها في رأيهم تتنافى والتوحيد ومتفرعاته ، وخاصة صفة (القدم) لله سبحانه ، فقد أعتبر أن كل ما يتصل بالله فهو قديم وليس حادثا ، ومثل ذلك كلام الله (القرآن) وجدلية حدوثه أو قدمه ، إلى آخر ما هنالك من مشكلات علم الكلام الإسلامي .

والحقيقة فان نظرة متأنية للمسألة برمتها بعيدا عن النصوص ، وفي ظلال الحديث بالغ الأهمية للإمام الصادق (ع) : ما عظم الله بمثل البداء " يمنح المتأمل في ذات الله من خلال تحليلاتها انطباعًا وحيدًا هو أن كل ما هو قائم تحت النظر من أشياء ينوس في الكينونة بين حالتين : القدم والحدوث ، وبما أن المتأمل المؤمن يقر بأثر الدعاء والاستجابة من جهة ، ويقر بأن علم الله الذي هو ذاته شامل لأبعاد الزمن الثلاثة ، الماضي والحاضر والمستقبل بما تحتويه من أشياء في الآن نفسه من جهة أخرى ، يبدو جليا له أن الحدوث مرتبط بالزمن بما يعينه من (بداية ونهاية) وجدلية أو إبداع ارتباط الله سبحانه غير المتزمّن أصلاً بكل ما هو متزمّن من الأشياء بداياتها ونهاياتها . الله هو الخالق والمحدث ، هو نقلها من حالة الكمون أو القوة إلى حالة الفعل أو الظهور ليعيدها ثانية بعد نهايتها إلى حالة أخرى هي القوة أو ربما الفناء المطلق كأن لم تكن ، تماماً كما يحدث للجسد في انتقاله إلى كيفية جديدة هي التراب أو انتقال التراب إلى حالة جديدة كأن يصبح طاقة في الهواء ، كما يحدث للتفاعلات الذرية – فيبتعد عن الحالة المادية.

هو انتقال الشيء إذن إلى علم الله من جديد بكيفية جديدة ، فإذا انتفى الزمن انتفى الحدوث قطعا .. الحدوث أو الخلق مرتبطان بالزمن الذي نفهمه (نسبياً كما عبر عنه الإمام الصادق) تبعا للحركة التي تحددها خلايانا في مسيرتها نحو النهاية ، الحدوث حالة فهم إنسانية بالمطلق لا يمكن ربطها بالذات الإلهية إلا من حيث المصطلح اللغوي ، لكن الله خالق كل شيء أو محدثه ، فهل يمكن حل الإشكالية هذه إلا بالطريقة التي عبر عنها الصادق.؟الله سبحانه نسبة إلى الإنسان المتحرك يمثل حالة من الحركة ، هو ثابت في مطلقه ولكنه متحرك بالنسبة لفهم

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الإنسان المتحرك الذي لا يستطيع التعامل مع مقولة الثبات مادام يطلب منه الدعاء إلى الله لتغـير الواقع الذي حل به ، وهو سبحانه كل يوم في شأن كما وصف نفسه ، فليس هو ساكنا بالمصطلح الإنساني للسكون .

يمحو الله ما كان ثابتا ، كما عبر الإمام ويثبت أيضا ما لم يكن أصـلا موجـودا ، فـإذا نسبنا ذلك إلى الدعاء وصلنا إلى نتيجة أن الدعاء يمكن أن يغير ما كان مقدرا أو ثابتـا عنـد الله فهذا ما يدل عليه ظاهر النص القرآني ((يمحو الله ما يشاء ويثبت)) وأيضا حديث الإمام (رض) لكن الاستدراك جاء في تفصيله لمعنى علم الله وخاصة ((علم عند الله مخزون لم يطلع عليه أحدا من خلقه)) يقدم ما يشاء منه ويؤخر ، إن ذاك يمنحنا فسحة من التأمل ربما تخفف مـن حـيرة المتأمل نحو أن التغير الحاصل بحد ذاته " كتغير" موجود أيضا في علم الله ، بحيـث يبـدو مـا شاهدنا أنه يتغير بالدعاء عمليا إن هو إلا مجرد تجليات مسيرة الزمن من جهة والابتلاء الإلـهي للإنسان من جهة ثانية ، فهو تعالى يسعى إلى جذب الإنسان نحو توحيده وعبادته ، وهو يحب هذا الإنسان (العقل) الذي أبدعه وأحاطه بالزمن (البداية والنهاية) .. أليست تلك أفكار كبيرة إشكالية لا يمكن التعامل معها إلا عبر صفاء القلب والفهم العميق ، ومن هنا تبرز جملة الإمام " ما عظم الله بمثل البداء " من خلال توصيفها للبصيرة القلبية لتجليات الذات الإلهية على أو فـي أعمـاق الإنسان ، بعيدة عن الأحكام التقريرية المقيدة بالكلمات والجمل اللغوية .. حالة عبادية محضة .

الخير والشر والجبر والقدر :

من المحير نص حديث كالتالي للإمام الصادق " قال الله عز وجل : أنا الله لا اله إلا أنـا ، خالق الخير والشر فطوبى لمن أجريت على يديه الخير وويل لمن أجريت على يديه الشر وويـل لمن يقول " كيف ذا وكيف هذا ، قال يونس (أحد رواة الحديث) : يعني من ينكر هذا الأمر بتفقه فيه ".

في الحديث تدخل لأحد الرواة في التفسير بديهيا، فظاهر الحديث جبر مطلق لكن نظرنـا إلى ما يليه يعطي انطباعا معاكسا تماما. يقول الإمام " من زعم أن الله يأمر بالفحشاء فقد كـذب على الله ، ومن زعم أن الخير والشر إليه فقد كذب على الله "[٣٧] .

وإذا أمعنا في حديث رسول الله (ص) برواية الصادق نكتشف أن المسألة برمتها تتجه نحو إنشاء علم الكلام الإسلامي في محاولة للوصول إلى تفاسير مقنعة [وهذا ما حدث] يقول الرسـول :" من زعم أن الله يأمر بالسـوء والفحشـاء فقـد كـذب علـى الله ، ومـن زعـم أن الخـير

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والشر بغير مشيئة الله فقد أخرج الله من سلطانه ، ومن زعم أن المعاصي بغير قوة الله فقد كذب على الله ، ومن كذب على الله أدخله الله النار " وأخيرًا: نصل إلى الحل الوسط الذي جاء على لسان الإمام أيضاً حين قال " أن الله أرحم بخلقه من أن يجبر خلقه على الذنوب ثم يعذبهم عليها والله أعز من أن يريد أمرًا فلا يكون ، قال : فسئل (ع) هل بين الجبر والقدر منزلة ثالثة : قال : نعم أوسع مما بين السماء والأرض ". اذن هناك منزلة وسيطية بين منزلتين.

قد يبدو مفيداً أن توضح أفكار الإمام (رض) أكثر من خلال هذا الحديث " سئل الإمام هل أجبر الله العباد على المعاصي قال لا ، قلت : ففوض إليهم الأمر ، قال : لا ، قلت : فماذا ؟ قال الإمام : لطف من ربك بين ذلك ".

ولكن المتكلمين ، في محاولتهم لتفسير ذلك ، لم يكونوا في حالة من الإقناع العقلي بما يكفي ، يقول السيد الطباطبائي (رحمه الله) من خلال مثل يضربه لتوضيح المسألة " لنفترض انساناً أوتي سعة من المال والمآل والضياع والدار والعبيد والإماء ثم اختار واحدا من عبيده وزجه إحدى جواربه وأعطاه من الدار والأثاث ما يرفع حوائجه المنزلية ومن المال والضياع ما يسترزق به في حياته بالكسب والتعمير ، فان قلنا أن هذا الإعطاء لا يؤثر في تملك العبد شيئاً والمولى هو المالك وملكه بجميع ما أعطاه قبل الإعطاء وبعد على السواء كان ذلك قول المجبرة وان قلنا : أن العبد صار مالكًا وحيدًا بعد الإعطاء وبطُل به ملك المولى وإنما الأمر إلى العبد يفعل ما يشاء في ملكه كان ذلك قول المفوضة ، وان قلنا ، وهو الحق ، أن العبد يمتلك ما وهبه له المولى في ظرف ملك المولى وفي طوله ، لا في عرضه ، فالمولى هو المالك الأصلي والذي للعبد ملك في ملك كما أن الكتابة فعل اختياري منسوب إلى يد الإنسان وفي نفس الإنسان ، بحيث لا يبطل احدى النسبيتين الأخرى".

إذا أخذنا هذا المثل المضروب بعين الاعتبار ، كتفسير أمثل للأحاديث ، وأسلوبا لمحاولة حل الإشكالية فلسفيا من خلال معالجة وقائع مشابهة حياتية ، نجد أن إرادتين تتوضعان في ذات الوقت وإحداهما تستقر في ذات الأخرى ، وللتقريب .. تبدو إرادة الإنسان في مسألتي الخير والشر وفي نطاق الجبر والاختيار هي التي تحتل الدرجة الاولى ضمن إرادة الله (وذلك لا ينطبق على المثال أن اليد هي أداة الكتابة لان النفس هي التي تشير بالكتابة) وقبل هذا وذاك هناك الاستعداد الذي وضعه الله تعالى في النفوس البشرية بدرجات متساوية نحو الاتجاهين (الخير والشر) معا ومع ذلك فليس من تشابه بالمطلق بين البشرية في استعدادتهم تلك ، وتأتي الظروف الموضوعية التي تؤثر على اتخاذ القرار بما في ذلك الشرط اللازم والكافي الذي

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

عالجته الفلسفة في مشكلة الحرية الإنسانية مما ملأ آلاف الصحائف .

والحقيقة أن الإنسان عندما يقرأ الاتجاهين [الجبر والاختيار] بفلسفاتهما ، يجد ذاته منحازا إلى ترجيح أحدهما تبعا لتجربته الذاتية أصلا ، لكنه عادة يميل عقليا إلى الاختيار الحر مصيرا إنسانيا مفضلا ، انحياز الذات الإنسانية إلى تأكيد حريتها وتقرير مصيرها وتؤكيد الذات في خضم متلاطم من مصاعب الحياة واحباطاتها وفي الوقت ذاته ، وعند لحظات الضعف والهزائم ، لجوء نفس هذه الذات إلى الرضوخ والاستكانة واحالة الأمر إلى قوة عليا إلى القضاء والجبر ،ويأتي تقرير مدرسة أهل البيت للمنزلة الوسط بديلا إسلاميا أكثر قربا للنفس الإنسانية ولكنه لايحل الإشكالية تماما (عقليا) ليحتل الإيمان والتسليم الدور الابرز والأول في تقرير الحل .

فسر الإمام الصادق (على أي حال) ماذا يقصد بالأمر بين الأمرين أو المنزلة بين المنزلتين حين قال " رجل رأيته على معصية فنهيته فلم ينته فتركته ففعل تلك المعصية ، فليس حيث لم يقبل منك فتركته كنت أنت الذي أمرته بالمعصية "[٣٨] هذا التفسير الشفاف والدقيق يرتبط حكما بالحالة الإنسانية ذاتها ، بتقرير أن الحياة برمتها (بؤرة للمعاصي) والقوي هو من (استطاع) أن ينجو من فعلها (المعاصي) واستجاب للتحذيرات بينما لم يستجب الضعيف وهلك ، ومع ذلك يأتي حديث رسول الله " كل ابن آدم خطاء " كل الناس تقع في الشر والخطأ ، شاملا النوع الإنساني باستغراق ، لتبدو المنزلة بين المنزلتين البديل الوحيد لتفسير مسألة كلامية بالغة التعقيد كهذه بين الجبر والاختيار ، مفسحا المجال للتوبة والغفران ونزول الرحمة .

نظرية الإمامـــــة :

تحتل هذه النظرية مجمل كتاب (الحجة) في (الكافي) بأحاديث يبلغ عددهما ١٠١٥ حديثا ، وقد استقى الكليني عنوان الباب من حديث للإمام جعفر بن محمد (رض) نقله هشام بن الحكم يقول فيه من ضمن ما يقول " مؤيدين (أي الأنبياء والرسل) من عند الحكيم العليم بالحكمة ثم ثبت ذلك في كل دهر وزمان مما أتت به الرسل والأنبياء من الدلائل والبراهين ، لكيلا تخلو أرض الله من (حجة) يكون معه علم يدل على صدق مقالته وجواز عدالته "

الحجة والعلم متلازمان ، فالأئمة بالتالي هم حجة الله على خلقه بعد رسول الله (ص) وجودهم لازم ولا يجوز أن تخلو الأرض من أحدهم إلى يوم القيامة.

تبدو نكهة الأيديولوجيا الإسلامية في مدرسة أهل البيت تحديدا في باب (الحجة) الذي يلخص نظرية الإمامة في الإسلام، وغني عن القول أن مئات المفكرين عالجوا هذه النظرية بين

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مؤيد ورافض ،[٤٠] وكانت وستبقى اشد القضايا الإسلامية إثارة للجدل ، ومميزة للتشيع الإسلامي ومضمون أيديولوجيا مدرسة أهل البيت في الآن ذاته .

يبرز الإمام الصادق (رض) المحدث كأساس لتوضيح النظرية ، ويرتبط النقل عنه في الأحاديث المفصلية بتلميذه هشام ، لندرك بوضوح مدى حاجة الأطراف المناوئة للطعن بهذا التلميذ ونشر الشائعات حوله والتشكيك بصدقه وعدالته سعيا إلى نسف ما نقله عن هذه النظرية (البالغ الأهمية) ولتهشيم السند التاريخي لها من خلال تسفيه الناقل ، وذاك كما لا يخفى سمة البحوث المتعلقة بالمنهج التاريخي للسنة النبوية ، وما تعلق بها من أبحاث الجرح والتعديل والرجال ، ومئات الدراسات التي تملأ المكتبات .

يبدو الخلاف الجلي بين الطرفين عبر نص حديث الصادق هذا " تعلمون أن رسول الله (ص) كان هو الحجة من الله على خلقه ؟ قالوا بلى : قلت فحين مضى رسول الله (ص) من كان الحجة على خلقه ؟ فقالوا : القرآن فنظرت في القرآن فإذا هو يخاصم المرجي (المرجئة) والقدري والزنديق الذي لا يؤمن به حتى يغلب الرجال بخصومته ، فعرفت أن القرآن لا يكون حجة إلا بقيم ، فما قال فيه من شيء كان حقا ، فقلت لهم أين قيم القرآن (بعض العالم به ظاهرا وباطنا ومحملا ومؤولا ومحكما ومتشابها وناسخا ومنسوخا بوحي الهي أو بالهام رباني أو بتعليم نبوي) فقالوا : ابن مسعود قد كان يعلم وعمر يعلم وحذيفة يعلم ، قلت : كله ؟ قالوا : لا فلم أجد أحدا يقال انه يعرف ذلك كله ألا عليا (ع) وإذا كان الشيء بين قوم فقال هذا لا أدري وهذا : لا أدري ، وقال هذا أنا أدري ، فاشهد أن عليا (ع) كان قيم القرآن وكانت طاعته مفترضة وكان الحجة على الناس بعد الرسول (ص) وأن ما قال في القرآن فهو محق "[٤١]

لقد استلزم لإثبات (الحجة) ولزوم وجوده ، استخدام علم المنطق بأرفع تجلياته ، في الجدل الذي دار في تلك المرحلة من حياة الإمام الصادق وقد احتل فيه هشام بن الحكم دورا بارزا وغنيا في حواراته مع شيوخ المسلمين (وخاصة المعتزلة) ومنهم على سبيل المثال عمر بن عبيد ، وفي الآن ذاته حاز على رضا ومديح الإمام الصادق وثقة المؤسسة بكامل باحثيها (كما يثبت الكافي) من خلال هذا النص البالغ الدلالة " يا هشام لا تكاد تقع ، تلوي رجليك إذا هممت بالأرض طرت ، مثلك فليكلم الناس ، فاتق الزلة والشفاعة من ورائها إنشاء الله "[٤٢])

يندرج تحت إطار هذه النظرية مجموعة من العناوين الرئيسية والعديد من الفرعيات وربما كان الرئيسي فيها عناوين كهذه :

١- من هو الإنسان المحدث .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٢- معرفة الإمام وفرض طاعته .

٣- مهمات الأئمة وأهداف وجودهم ورسالتهم ويتفرع ذلك الى مجموعة كبيرة من العناوين مثل:إنهم الشهداء على الحلق ، الهداة، ولاة الأمر وخزانة العلم ، خلفاء الله على الأرض ، نور الله ، أركان الأرض لهم العلامات في القرآن الكريم ، هم أهل الذكر ومن وصفهم بالعلم والرسوخ فيه ، وراثتهم لكتاب الله ، هم النعمة ، هم المتوسمون ، فعرض عليهم الأعمال ، معدن العلم وشجرة النبوة ومختلف الملائكة ، ورثة العلم عن الأنبياء والأوصياء مثلهم ، جامعوا القرآن ، يعرفون اسم الله الأعظم ، عندهم سلاح الرسول والصحيفة والجعر والجامعة ومصحف فاطمة ، إذا شاءوا علموا حتى يموتون وباختيارهم ، علمهم ما سيكون ، مشاركتهم الرسول (ص) في العلم منذ الإمام علي ، التفويض إليهم في أمر الدين ، محدثون ، مسددون بالروح القدس ، تساويهم بالشجاعة والعلم والطاعة لهم ، معرفتهم بالإمام اللاحق ، منصوص عليهم من الله بالترتيب من قبل الرسول (ص) وأن لآخرهم غيبة ، حتمية معرفتهم ومعرفة صاحب الزمان لاكتمال الدين ، الطبيعة النورائية للإمام ، صلتهم بالملائكة والجن ، انهم منبع العلم كله ، ما لم يكونوا مصدره فهو باطل ، لهم الأرض كلها ، قيامهم بأمر الله وهدايتهم إليه ، لهم الفئ والأنفال والخمس ، الإمام بين البشر هو الذي يسمع الصوت ولا يرى ولا يعاين الملك ، هو المحدث كما ورد في الآية التالية بقراءة أهل البيت " وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي ولا محدث " بينما ينزل جبريل على الرسول فيراه ويسمع كلامه ويرى المنام (كمنام إبراهيم) أما النبي فربما سمع الكلام ، وربما رأى الشخص ولم يسمع [٤٣] .

هكذا حدد الإمام الصادق التخوم بين الرسول والنبي والمحدث (الإمام) ولان الإمام حجة الله على خلقه ولا تقوم الحجة إلا به كما يعبر الصادق ، أمكننا وضع هذا الحديث في كتابه العمود الفقري للنظرية ، وتأكيد صحة نسبته اليه، فلا يمكن دراسة منهج مدرسة أهل البيت(وهو منهج مستمر) إلا بإقرار بأنهم قدموا أنفسهم للناس بأنهم كذلك ، -وإلا فما مبرر كل ذلك الاضطهاد أصلا - هذا الاستقطاب الذي ساهم في تكوين التيار الشيعي المتمكن تاريخيا من الرسوخ و التجذر والاستمرار وانتاج النظرية والشروح والفروع الفقهية التابعه للأصول ، بما أغنى المكتبة الإسلامية بآلاف من الكتب من ناحية ، وقسم الجماهير الإسلامية إلى قسمين .

وللحقيقة يجدر القول أن المسلمين لم يختلفوا على ضرورة (الإمام) وجودا وولاء

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وطاعة ، حاكما كان أو رجل فقه ودين ، مركز استقطاب محلي أو عام ، ولكنهم اختلفوا على انتمائه العائلي ومهماته ، وهل هو حجه على الخلق بعد رسول الله أم لا ، وقد تميزت مدرسة أهل البيت تحديدا بإصرارها على الميزة الأخيرة وانفرد الإمام الصادق بالإصرار على القول : "لو لم يبق في الأرض إلا اثنان لكان أحدهما الحجة[٤٤] ، ليجعل من المسألة أصلا إسلاميا بالمطلق ، لا يمكن القفز من فوقه يرتبط بصلب العقيدة والإيمان بالله بل أن الإمام أكد أن معرفة الإمام من أصول الإسلام والإيمان بشروط نص عليها في حديث الإمام الكاظم عن أبيه " إنما يعبد الله من يعرف الله ، فاما من لايعرف الله ، فإنما يعبده هكذا ضلالا ، قلت جعلت فداك فما معرفة الله ؟ قال : تصديق الله عز وجل وتصديق رسوله وموالاة علي والإئتمام بأئمة الهدى والبراءة إلى الله عز وجل من عدوهم ،هكذا يعرف الله عز وجل." [٤٥]

هل يبدو حديث كهذا متطرفا أم انه يساهم في بلورة ملامح النظرية؟

الموالاة – الأئتمام – البراءة من أعداء أهل البيت هي الطريق إلى معرفة الله، هنا تبدو الأحاديث المنقولة عن الإمام موسي الكاظم اكثر حدة في هذا المجال لأسباب تتعلق ربما بظروف نضج النظرية واكتمال تشكيل مدرسة أو تيار أهل البيت في زمن الرشيد العباسي وازدياد طرح المسألة على الجماهير في زمن المأمون العباسي وصولا إلى استخلاف (المأمون) الإمام علي الرضا (رض) ، لكن الصادق (رض) يبدو في منهجه اكثر سعيا إلى تقريب النظرية إلى العقول من خلال تفسيره للقرآن الكريم اكثر منه في إصدار الأحكام التقريرية، ففي مجموعة الآيات التالية: " وإني لغفار لمن تاب وآمن و عمل صالحا ثم اهتدى" طه (٢٠) أوالآيه "إنما يتقبل الله من المتقين " المائدة (٣١)أو الآيه " وأطيعوا الله والرسول وأولي الأمر منكم " البقرة (٨٢) يقدم الإمام المؤيدات القرآنية للنظرية في حديثه ثم انه يقرب المسألة اكثر بتوضيحه بأن الإيمان كل لا يتجزأ ، ولأن أولي الأمر هم الأئمة فهو يؤكد " اعلموا أنه لو أنكر رجل عيسى بن مريم وأقربمن سواه من الرسل لم يؤمن اقتصوا الطريق بالتماس المنار من وراء الحجب والآثار[أن لم يتيسر لكم الوصول إلى الإمام فالتمسوا آثاره] تستكملوا أمر دينكم وتؤمنوا بربكم [٤٦] المسألة في نظرية الإمام (رض) تنطلق أساسا باستكمال أمر الدين والإيمان ، وإلا فانهما يظلان ناقصين دون معرفة الإمام العينية أو التماس آثاره ، هذا بينما يصر الإمام الكاظم على أن " من اصبح من هذه الأمة لا إمام له من الله عز وجل ، ظاهر عادل ، أصبح ضالا تائها ، وان مات على هذه الحالة مات ميته كفر ونفاق ، واعلم يا(محمد) (أحد الرواة) أن أئمة الجور وأتباعهم لمعزولون عن دين الله قد ضلوا وأضلوا .. " [٤٧] . إلى آخر الحديث .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

واضح هنا اتصال مفهوم (الإمام)، بالمصطلح السياسي للكلمة و(أئمة الجور) تـــأتي بمعنى الحكام قطعا. وهكذا نلحظ بدقة مايرمي إليه الكـــاظم (رض) مقارنـــة بـــرأي والـــده ، ونستطيع فهم تطور مفهوم الإمامة في حديث كل منهما في مجال إصدار أحكـــام القيمـــة علـــى الجماهير من جهة معرفتها للإمام ومذهبه وأتباعه وطاعته ممتزجة برفض السلطة الجائزة بإمامها القائم وهو الخليفة ".

ان من المرجح أن الإقرار القلبي والولاء لأهل البيت متمثلا بالولاء للإمام القـــائم حتـــى الثاني عشر في زمانهم ، ثم بالولاء القلبي لهم (غيابا في عصر الغيبة) ولمنهجـــهم الفكـــري ، بالتماس آثاره فهما وبحثا ، هو ما رمى إليه الصادق سلام الله عليه وابناه من بعده ، فلم يكن مـــن اختلاف إلا من ظاهر القول تبعا للظرف الموضوعية وتطور مؤسسة أهل البيت تاريخيا .

المعرفة التي تستلزم الطاعة جزء أساسي للنظرية ، ويستكمل الصادق توضيح ذلك مـــن خلال هذا الحديث الهام " نحن الذين فرض الله طاعتنا ، لا يسع الناس إلا معرفتنا ولا يعذر الناس بجهالتنا ، من عرفنا كان مؤمنا ، ومن أنكرنا كان كافرا ، ومن لم يعرفنا ولم ينكرنا كان ضـــالا ، حتى يرجع إلى الهدى الذي افترض الله عليه طاعتنا الواجبة ، فإن بحث عن ضلالته يفعل الله بـــه ما يشاء " (٤٨).

في النص الحاح على حكم القيمة الوسطى على الغالبية من المســـلمين أولئـــك الذيـــن لا يعرفون معنى البحث والسؤال ، فقد أوكل الإمام أمرهم لله يفعل بهم ما يشاء ، لكن في الآن نفسه ضالون ، دينهم لا يخلو من نقص. من أنكر الإمام كان كافرا ، مقوله لا تخلو من مضمون إيماني وسياسي معا ، وذلك أن الصادق لم ينكر إمامته إلا القليل من المسلمين ، وبالتحديد إمامته الفكرية – فهو لم يتصد للإمامة السياسية أصلا – وكان من بين المقرين بذلك الكثير من أقطاب عصره (كما رأينا) ، ولا يعرف مع ذلك مدى حجم المقرين بإمامته من جماهير المسلمين ممـــن لـــم لا يستطاع تحديد عددهم أو استطلاع آرائهم ممن سمعوا به في الوطن الإسلامي ، وان كنا نعتقـــد أنهم الغالبية الساحقة، لذا يظل حديث كهذا في إطار المصداقية ولا يحمل أي تعسف ، بـــل وأنـــه يوصف النظرية من جهة المرحلة التاريخية اجتماعيا من جهة مواجهة. يتكثف حكم القيمـــة فـــي العودة إلى الهدى ثم اهتدى "وفق منطوق الآيه الكريمة، ويتم الهدى عبر العمل التبشيري للإمـــام بين صفوف المسلمين سعيا لهدايتهم إلى أحد الأركان الأساسية للدين (الإمامة لأهل بيت النبـــي) . وهكذا يتم تصعيد مفهوم الإمامه ليكون الركن الخامس متضمنا ضرورة الولاية تبعا وكـــل ذلـــك يكمل أسس النظرية الاسلاميه في مدرسة أهل البيت .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

"يقول : الصادق عن الرسول (ص) :من مات وليس عليه إمام فميتته ميته جاهلية فقلت (الراوي) قال ذلك رسول (ص) ؟ فقال : أي والله قد قال ، قلت فكل من مات وليس له إمام فميتة ميته جاهلية ؟ قال نعم ".

واستكمالا لتحديد تخوم الجاهلية بين الكفر أو الضلال ، يأتي الحديث الذي يتلوه باستفسار السائل (ابن أبي يعفور) "قلت ميته كفر ؟قال ميته ضلال .." [٤٩] إلى آخر الحديث . أحيانا يبدو الصادق اكثر تشددا حين يقول "أن الله لا يستحى أن يعذب أمة دانت بإمام ليس من الله وان كانت في أعمالها برة تقيه ، وان الله ليستحي أن يعذب أمة دانت بإمام من الله وان كانت في أعمالها ظالمة ومسيئة" [٥٠] .

أن يكون الضلال غير الكفر ، نظرة فيها الكثير من الاعتدال . فالضال أمره إلى الله ولكنه قابل للهداية حين يتملك المعرفة، تلك هي وجهة نظر الصادق ، فهل تبدو منسجمة مع الحديث السابق عن إيقاع العذاب ؟. في الكافي وعبر النصوص المتشابهة للحديث الواحد، نلمس الاعتدال مرة أو الحدة مرة ثانية في تفسير النص من قبل الصادق تبعا للرواة. فمثلا يقدم الحارث بن المغيرة تفسيرا للجاهلية بعيدا عن طبيعة مسلك الإمام الصادق الفكري ومنهج الحوار مع الآخر الذي ألزم به نفسه حين يقول مستفسرا ، قلت : جاهلية جهلاء أو جاهلية لا يعرف إمامه ؟ قال (الصادق) جاهلية كفر ونفاق وضلال [٥١] وهذا يناقض تماما الحديث الأسبق كما هو واضح حين أصر على كلمة (الضلال) . على اية حال فان طبيعة المدرسة والعصر وجدلية تمازجهما أوضحها الإمام جعفر بن محمد في أول الكافي عبر مجموعة هامة من الأحاديث ،بدءا من (نسخ الحديث كما ينسخ القرآن) وصولا إلى حديثه "من عرف أنا لا نقول إلا حقا فليكتف بما يعلم منا فان سمع منا خلاف ما يعلم فليعلم أن ذلك دفاع منا عنه "[٥٢] أو الحديث الذي يتلوه برواية (سماعه بن مهران) "قال: سألته عن رجل اختلف عليه رجلان من أهل دينه في أمر كلاهما يرويه: احداهما يأخذه والآخر ينهاه عنه ، كيف يصنع ؟ فقال: يرجئه حتى يلقى من يخبره ، فهو في وسعه حتى يلقاه ، وفي رواية أخرى :بأيهما أخذت من باب التسليم وسعك".

وفي تفسير الجلي لهذا النص من كتابه (مرآه العقول) يضيف إلى الحديث " قلت :لا بد أن يعمل بأحدهما قال (الصادق) . خذ بما فيه خلاف العامة ."

الإمام الصادق (رض) ترك لأتباعه حرية التصرف والاجتهاد في اختيار النص الأمثل لوضعه موضع التطبيق انسجاما مع المرحلة . فان لقيت الإمام سألته وان لم تجده أو أحد الثقاة عندك فاعمل بما فيه خلاف السائد في المجتمع.ألا يبدو عبر نص كهذا أن الإمام سلام الله عليه

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

– إن صح مانقل عنه – يزيد الأمور تعقيدا في مجال التطبيق للسنة النبوية الراسخة عبر مدرسة أهل البيت ؟ فهل يصح ذلك إن كان السائد خيرا للناس ، هل يعمل بخلافه؟ .

في الحالين – مهما يكن – يقدم الكافي عبر الإمام الصادق تفسيرا لطبيعة المدرسة وظروفها الموضوعية وجدلية النظرية والتطبيق ، الرفض أو القبول للتفسير، بما في ذلك وضع نصوصه ذاتها في نفس الإطار.كل شيء خاضع للعقلانية و القرآن الكريم ، وهذا بحد ذاته منهج للعمل، ليصبح الجانب النقلي منها إلى جانب كونه جزءا من النظرية، فهو في آن معا منهج للبحث فيها عبر الزمن القادم في عصر الغيبة عند وصول عدد الأئمة إلى اثنى عشر إماما. وقد أورد الكافي في النصوص هذه المسألة بوضوح لا لبس فيه.

الإمامة والغيبة:

في نص هام عن الإمام الصادق (رض) عن أبيه عن جابر الأنصاري عن فاطمة الزهراء (رض) عن رسول الله :أن الرسول (ص) حدد الأئمة بأسمائهم في صحيفة أهداها إليها عند ولادتها للحسين (رض) في ختام الحديث الذي يرويه عبد الرحمن بن سالم عن أبي بصير : قال أبو بصير لو لم تسمع في دهرك الاهذا الحديث لكفاك قصته إلا عن أهله" (٥٣) .

لكن معظم أحاديث النص على الأئمة بأسمائهم نلحظ أنها لم ترو عن الإمام الصادق بل عن أبيه (الباقر) (رض). ومن ضمن ذلك حديث محمد بن عمران بروايه أبي بصير عن الإمام الصادق (رض) يقول :نحن اثنا عشر محدثا ، فقال له أبو بصير : سمعت من أبي عبد الله (ع) فحلفه مرة أو مرتين انه سمعه ؟ فقال أبو بصير : لكني سمعته من أبي جعفر (ع) ".

والحقيقة أن تحديد الرقم(١٢) بما في ذلك المهدي وظهوره وعودة عيسى بن مريم أحاديث موجودة في جميع الأحاديث النبوية في كل كتب المسلمين بفرقهم وبروايات متعددة تنقص أو تزيد ، أما الكافي فيتفرد بمسألة الغيبة لصاحب الدار (الإمام المهدي) : " عن عمر والاهوازي قال : أراني أبو محمد(الحسن العسكري (ابنه وقال : هذا صاحبكم من بعدي "(٥٤) في تحديد وجوده حصرا ، علما أن الإمام العسكري (رض) أنكر أن له ولدا " فان الأمر عند السلطان أن أبا محمد مضى ولم يخلف ولدا وقسم ميراثه وأخذه من لاحق فيه وهو ذا ، عياله يجولون ليس أحد يجسر أن يتعرف إليهم أو ينليهم شئيا وإذا وقع الاسم وقع الطلب فاتقوا الله واقلعوا عن ذلك " .

لقد كانت توصية الإمام لأتباعه بالتعامل بسرية مطلقة مع وجود الإمام الثاني عشر كما هو النص ، خشية من بطش السلطة العباسية به ، ليتمكن من العمل بحرية وسرية تامة بين

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أتباعه من خلال نوابه في عصر الغيبة الصغرى وهو زمن الإمام الكليني رحمه الله أيضا .

في الكافي يحتل الإمام الصادق الدور الابرز في الإشارة إلى الغيبة ، والكليني في روايته لهذا الجانب المفصلي في نظرية الإمامة لا يعدو أحاديث الصادق في الغالبية ، ثم الباقر (رض) والإمام علي (رض) وحديثا واحدا للإمام علي الرضا (رض) ومثله للكاظم ومثله لعلي الهادي. ولكن ، لماذا تصنف مقولة الغيبة في هذه الدرجة من الأهمية ؟ هذه المسألة ربما كانت اليوم أشد المسائل الخلافية بين جناحي المسلمين في أسئلتهم الملحة عن معقوليتها بالدرجة الأولى فهي قضية إيمانية تسليمية .

يقول الصادق : " إياكم والتنويه ، أما والله ليغيبن أمامكم شيئا من دهركم ولتمحصن حتى يقال : مات ، قتل ، هلك ، بأي واد سلك ؟ ولتدمعن عليه عيون ، المؤمنين ، ولتكفأن (تتململ وتضطرب) كما تكفأ السفن في أمواج البحر ، فلا ينجو إلا من أخذ الله ميثاقه ، وكتب في قلبه الإيمان وأيده بروح منه ، ولترفعن اثنتا عشر راية متشابهة ، لا يدري أي من أي قال (الراوي المفضل بن عمر) : فبكيت ثم قلت : فكيف نصنع ؟ فنظر إلى شمس داخله في الضفة فقال : يا أبا عبد الله ترى هذه الشمس ؟ قلت نعم ، فقال : والله لأمرنا أبين من هذه الشمس " من خلال النص نلمس إن الراوي في بكائه ظن أن الغيبة ستكون للذي يحدثه (الإمام الصادق) لكن الإمام في أحاديث عديدة أخرى أوضح تفاصيل أوفى لصفات ذاك الذي يغيب : قال " يازرارة هو المنتظر وهو الذي يشك في ولادته منهم من يقول : مات أبوه بلا خلف ومنهم من يقول :حمل (أي مات أبوه وهو حمل) ومنهم من يقول : انه ولد قبل موت أبيه بسنتين ، وهو المنتظر ، غير أن الله عز وجل يحب أن يمتحن الشيعة .."

ويقول " يفقد الناس إمامهم يشهد الموسم فيراهم ولا يرونه " ثم يكون اكثر تحديدا في قوله " للقائم غيبتان ، يشهد في إحداها المواسم ، يرى الناس ولا يرونه "[٥٥] بل أنه يحدد مكانة سكنه في المدينة المنورة ، ثم يتحدث عن انقسامات الشيعة بسبب هذه المسألة وأن بعضهم يسمي بعضا بالكذابين ويتفل بعضهم في وجوه بعض ، وأن القائم في الغيبة الأولى لا يعلم بمكانة إلا خاصة شيعته ، أما الآخرى فلا يعلم بمكانه إلا خاصة مواليه .

ولعل النص الأكثر دقة والمثير للجدل والحيرة ويحمل الكثير من المصداقية التاريخية حقا هو ما ورد في حديث الباقر (رض) : " إذا غضب الله تبارك وتعالى على خلقه نحانا عن جوارهم "[٥٦] ذلك أن سنة ٢٦٠ للهجرة أو القرن الثالث في نهايته شهد تهاوي الخلافة العباسية وانقسام الإمبراطورية ، وصولا إلى ما سمي بعصر الانحطاط في القرن الخامس ، وما شهده

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

من غزوات صليبية ومغولية دمرت الأخضر واليابس وأدخلت الأمة في انحدارات متتالية .. إلى ما نحن عليه اليوم ، من وقوع تحت قبضة النظام العالمي الربوي الصليبي .

لقد ظلت الإمامة والغيبة ، في زمن الستة الأوائل من الأئمة ، وما يتصل بها من المهدية والعودة إلى هذا العالم مجددا (ليملأ الأرض عدلا بعدما ملئت جورا) فكرة متداولة بين المسلمين إلى درجة اليقينية الإيمائية ، وقد كانت فكرة ظهور المهدي والتساؤل عن وقت هذا الظهور (لإحقاق العدالة في الأرض) مدار أحاديث المسلمين وبحوثهم العقائدية من كل الاتجاهات ، ودليل ذلك الابرز - بعيدا عن النصوص - هو إطلاق اسم (المهدي) على الأشخاص ، ولم يكن غريبا أن أحد خلفاء بني العباس ، وهو والد هارون الرشيد ، حمل هذا الاسم تيمنا أو ايحاء بأنه صاحب الزمان [٥٧] ومع ذلك فقد سعت السلطات لأسباب تتعلق بطبيعة بروز المعارضة الشيعية الملتفة حول أهل البيت في زمن الإمام الكاظم وحتى غياب المهدي إلى طمس هذه الفكرة حتى من النصوص ، لتتحول إلى مجرد مسألة نظرية خلافية لدى كل من المذهب الجعفري (مدرسة أهل البيت) من جهة والمذاهب الأربعة المعتمدة (الحنفي - الشافعي - المالكي - الحنبلي) من جهة أخرى .

لكنها رغم كل شيء تظل مسألة إيمانية بالدرجة الأولى رغم كل البحوث في تراث مدرسة أهل البيت ، قديما وحديثا ، التي سعت إلى عقلنة هذه الفكرة ، وكان من أجملها دراسة السيد الشهيد(محمد باقر الصدر) رحمه الله ، حول الموضوع [٥٨].

أخيرا لابد من الإشارة إلى مسألة مهمة تتعلق بالنظرية ، واعتبرت في المجال التطبيقي ، حالة مميزة للمؤسسة الشيعية في تملك المرجعيات للاستقلالية الاقتصادية والحفاظ على المؤسسة المدرسة وصولا إلى بروز الولي الفقيه القائد في رحم المستقبل ، تلك هي النصوص التي أعطت الإمام حقا اقتصاديا في أموال المسلمين (الخمس والفيء والأنفال) ، أي بمعنى أوضح انهم ورثة حقوق رسول الله (ص) الاقتصادية .

يقول الإمام الصادق من حديث طويل [٥٩] " الخمس من خمسة أشياء من الغنائم والغوص (صيد اللؤلؤ) ومن الكنوز ومن المعادن والملاحة ، يؤخذ من كل هذه الصنوف الخمس فيجعل لمن جعله الله تعالى له .."

أما الأنفال فيوضحها الإمام " قال : الأنفال ما لم يوجف (يسرع إليه بالسير) عليه بخيل ولا ركاب ، أو قوم صالحوا ، أو قوم أعطوا بأيديهم ، وكل أرض خربة ، وبطون الأودية فهو لرسول الله وهو للإمام من بعده يضعه حيث يشاء "

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أذن الأنفال تضم فيما تضم ما يسمى اليوم بأملاك الدولة من الأراضي المشاع ، فهي اذن للإمام وارث الرسول تبعا للآية الكريمة من سورة الحشر(٧) " ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين) لقد ظلت جباية الأموال (الاختيارية) من المؤمنين بمدرسة أهل البيت مدار صراع عنيف بين الأئمة والسلطات القائمة ، تسكت السلطة حيناً وتحاسب أحياناً أخرى ، وقد عانى الإمام الصادق (رض) من استدعاءات المنصور العباسي إلى بغداد للمحاسبة ، واعتقل الإمام موسى الكاظم (رض) بحجة مماثلة ومات في سجنه اغتيالا ، ورغم هذا الحصار العنيف استمر أتباع المدرسة على ولائهم لهذا النص القرآني تبعا لإيمانهم بأن الأئمة ونوابهم من سلالة أهل البيت يملكون هذا الحق والثابت قطعا أن الاستجابة لهذا الغرض حفظ المدرسة وساهم في ازدهارها حتى يومنا هذا .

فلسفة الدعاء والقضاء (مجددا) :

الدعاء إلى الله مخ العبادة كما عبر رسول الله (ص) في حديث شهير ، ولعل أهمية الدعاء تتصل بطبيعة تلك البرهة التي يندمج فيها الداعي بربه سبحانه ، في اتصال حميم شفاف من الشعور بالضعف الإنساني ممزوجا بالحاجة الملحة إلى الأقوى ليعين على مصاعب الحياة ، هو الخوف والطمع وهو المحبة ، لكن الأهم فلفسيا هو ما ورد في حديث الصادق (رض) " أن الدعاء هو العبادة "[٦٠] وأن الدعاء يرد القضاء وقد نزل من السماء وقد أبرم إبراما "[٦١] مع اتصال من جهة أخرى بمقولة في النظرية الإسلامية لمدرسة أهل البيت ، وقد عولجت سابقا.

والحقيقة أن الآية الكريمة " قل ما يعبأ بكم ربي لولا دعاؤكم "الفرقان (٧٧) جعلت من الدعاء في المكانة التي تصل إلى الحالة الحميمية الكاملة في العبادة ، الفارق بين الإنسان وخالقه .. الشعور بالعبودية المطلقة لله ، واستحقت من كتاب الكافي أن يكرس لها (٤٠٩)أحاديث لرسول الله والأئمة ، وخلقت في مدرسة أهل البيت ما يسمى بأدب الدعاء الذي قدم لنا قطعا أدبية جميلة وبالغة الشفافية وصل بعضها إلى أن يشكل كتابا (الصحيفة السجادية " للإمام علي زين العابدين (رض) وبعضها في قمة البلاغة الأدبية (دعاء كميل) للإمام علي بن أبي طالب (رض) وكذلك دعاء الفرج للإمام جعفر بن محمد (الصادق) وهذا نصه : علما أن قسما منه فقط ورد في الكافي [٦٠] .

"اللهم احرسني بعينك التي لا تنام ، واكفني بركنك الذي لا يرام ، واحفظني بعزك الذي لا يضام وأكلاني في الليل والنهار ، وارحمني بقدرتك علي ، أنت ثقتي ورجائي ، فكم من نعمة أنعمت علي قل لك بها شكري ، وكم بلية ابتليتني بها قل بها لك صبري ، كم خطئيه ركبتها فلم

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تفضحني ، فيا من قل عند نعمته شكري فلم يحرمني ، ويا من قل عند بلائه صبري فلم يخذلني ، ويا من رآني في الخطايا فلم يعاقبني ، يا ذا المعروف الذي لا ينقضي أبدا ويا ذا الأيادي التي لا تحصى عددا ، ويا ذا الوجه الذي لا يبلى أبدا ، ويا ذا النور الذي لا يطفأ سرمدا ، أسألك أن تصلي على محمد وآل محمد ، كما صليت وترحمت على إبراهيم ، وأن تكفني شر كل ذي شر ، بك أدرأ في نحره وأعوذ بك من شره ، واستعينك عليه ، اللهم أعني على ديني بدنياي وعلى آخرتي بتقواي ، واحفظني بما غبت عنه ، ولا تكلني إلى نفسي فيما حضرته ، يا من لا تضره الذنوب ولا تنقصه المغفرة ، اغفر لي ما لا يضرك ، وهب لي مالا ينفعك ، يا إلهي أسألك فرجا قريبا وأسألك الغنى عن الناس ، ولا حول ولاقوه إلا بالله العلي العظيم ، اللهم بك استدفع مكروه ما أنا فيه ، وأعوذ بك من شره يأرحم الراحمين .

يقول الإمام الصادق (رض) : أربع دعوات لا يحجبن عن الله : دعاء الوالد لولده ، والأخ بظاهر الغيب لأخيه ، والمظلوم ، والمخلص ."

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

هوامش :

(١) الكليني : الكافي والروضة ، ج٢ ، شرح محمد صالح المازندراني ، المكتبة الإسلامية طهران بلا تاريخ ص ٣٩٥ .

(٢) م . س ، ص ٤٢٠ / (٣) م.س ، ص ٤١١ ج ١ / (٤) م.س ، ص ، المقدمة : لأبي الحسن الشعراني .

(٣) راجع : الإمام جعفر الصادق للشيخ محمد أبو زهرة .

(٤) أصول الكافي ، تعليق علي أكبر الغفاري ، ج ١ ، ط ٤ ، دار صعب ، بيروت ، ١٤٠١ هـ ص ٥٣ .

(٥) الكافي ، م.س ، ص ٤٢١) ٤٢٣ على سبيل المثال .

(٦) راجع : السيد حسين مكي : عقيدة الشيعة في الإمام الصادق أو : أسد حيدر : الإمام الصادق والمذاهب الأربعة وغيرها .

(٧) الطاهر بن عاشور : التحرير والتنوير (تفسير للقرآن)ى الدار الجماهيرية للنشر ، طرابلس ليبيا .

(٨) الكافي م.س ، ص ٤٠٧ ، ج١ / (٩) الكافي ، م.س ، ص ٤١٠

(٩) راجع بحث مدرسة الإمام الصادق والعصر الذهبي لعلم الكلام الإسلامي حول أفكاره في الفصل الأول .

(١٠) الكافي م.س ، ص ١٣ .

(١١) راجع : علي سامي النشار ، نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام ج ٢ ، بعنوان هشام بن الحكم.

(١٢) راجع بحث الإمام الصادق ومرحلة نضج عصر التدوين في هذا الكتاب .

(١٣) الإمام البخاري ، الجامع الصحيح ، ج ١ ص ٤٠ (باب كتابة العلم) وج٤ " باب أثم من تبرأ من مواليه " .

(١٤) الكافي م.س ، ص ١١ ج ١.

(١٥) م.س الكافي ص ٢١ .

(١٦) الأخلاق تنقسم إلى ثلاثة مسارب :(١) مسائل خلقية حول ما ينبغي وما لا ينبغي.(٢) مسائل عما هو دافع فيما يتصل بآراء الناس الخلقية مثل : ماذا يعتقد المسلم.(٣) مسائل تتعلق بمعاني الكلمات الخلقية : مثل مإذا تعني ينبغي ، الواجب الخير الخ .. : هناك الأخلاق الوصفية أو أخلاق العرف ، وهناك الأخلاق بالمعنى الدقيق ، وهناك نظرية الأخلاق ، وهناك المذاهب

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الأخلاقية : الطبيعي والحدسي ، والنسبي الذاتي والوجداني .. الأخلاق باختصار هي ما ينبغي فعله بتوخي الخير الإنساني الشامل .

(١٧) الكافي م.س ، ص ١٧.

(١٨) الرواقية هي : إحدى الفلسفات التي شاعت في الفترة الرومانية أسسها زينون الكينوي في نهاية القرن الرابع الميلادي حيث كان يعلم في الرواق في اثنيا وهي تتلخص بالزهد في الحياة للوصول إلى السعادة .

(١٩) م.س الكافي ص ١٥٠.

(٢٠) م.س ، ص ٣٠ .

(٢١) م.س ، ص ٣٧ .

(٢٢) راجع بحث الإمام الصادق والعصر الذهبي لعلم الكلام في هذا الكتاب .

(٢٣) الكافي م.س ، ص ٧٧) ٧٨ ج ١ .

(٢٤) الثلاثي : سقراط ، افلاطون ، أرسطو من أشهر الفلاسفة اليونانيين بحيث استحقوا بالتسلسل ألقاب : أبو الفلسفة ، والإلهي ، والمعلم الأول لارسطو ، أفلاطون هو الوسط بينهما ٤٢٧- ٣٤٧ ق .م صاحب نظرية الكهف الشهيرة ، كان تلميذا لسقراط وأستإذا لارسطو وجميع مؤلفاته محفوظة ومتوفرة .

(٢٥) الكافي م.س ، ص ١٢٧.

(٢٦) الكافي م.س ١٣٢ .

(٢٧) م.س ، ص ١١٣) ١١٤.

(٢٨) الكافي م.س ، ص ٥٢٧ .

(٢٩) م.س ، ص ٩٣ .

(٣٠) م.س ، ص ١٥٩.

(٣١) م.س ، ص ١٠٣٦ .

(٣٢) م.س ، ص ١٠٢.

(٣٣) راجع : السيد مرتضى العسكري : مائة وخمسون صحابي مختلق .

(٣٤) محمد حسين الطباطبائي : الميزان في تفسير القرآن .

(٣٥) الكافي م.س ، ص ١٤٧ .

(٣٦) م.س ، ص ١٥٤.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

(٣٧) م.س ، ص ١٥٦ – ١٥٧

(٣٨) م.س نفس الصفحة .

(٣٩) الكافي م.س ، ص ١٦٨.

(٤٠) يراجع فصل النفي من هذا الكتاب .

(٤١) الكافي م.س ، ص ١٦٩

(٤٢) م.س ، ص ١٣٧

(٤٣) م.س ، ص ١٧٦

(٤٤) م.س ، ص ١٧٩

(٤٥) م.س ، ص ١٨٠ .

(٤٦) م.س ، ص ١٨٢.

(٤٧) م.س ، ص ١٨٤ .

(٤٨) م.س ، ص ١٨٧.

(٤٩) م.س ، ص ٣٧٦.

(٥٠) م.س ، ص ٣٧٦.

(٥١) م.س ، ص ٣٧٧.

(٥٢) م.س ، ص ٦٦.

(٥٣) م.س ، ص ٥٣٤.

(٥٤) م.س ، ص ٣٢٨ .

(٥٥) م.س ، ص ٣٣٦.

(٥٦) م.س ، ص ٣٤٣ .

(٥٧) أحمد أمين ، ضحى الإسلام ، الجزء الثالث ، بحث التشيع ، دار الكتاب العربي ، بيروت، ط ١٠ ج ٣ ، بلا تاريخ ص ٢٦٣

(٥٨) راجع السيد محمد باقرالصدر – بحوث حول الإمام المهدي

(٥٩) الكافي م.س ، ص ٥٣٩– ٥٤٣

(٦٠) م.س ج ٢ ص ٤٣٧

(٦١) م.س ، ص ٤٦٩.

(٦٢) أسد حيدر،الإمام الصادق والمذاهب الاربعة ، ص٤٦٤ دار الكتاب العربي بيروت ١٩٨٣

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مدرسة الإمام الصادق في علم الكلام الإسلامي في عصره الذهبي

تمهيد:

ليس بجديد أن يقال أن الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، هو مؤسس علم الكلام في الإسلام ، فقد قدر له أن يكون الرائد في نواح عديدة من العلوم الإنسانية الغربية ، وبمتابعة الأئمة من أبنائه وأحفاده نلمس ريادة في علوم أخرى لم يكن علم الكيمياء أبرزها .

أثر عن الإمام علي انهج البلاغة ، الذي جمعه الشريف الرضي (محمد بن الحسين الموسوي) المتوفى عام ٤٠٦ للهجرة ، بينما كان لتلامذة الإمام جعفر بن محمد (الصادق) الإمام السادس (رض) أن ينقلوا عنه الكثير في مجالات متعددة ، منها علم الكلام وصولا إلى الكيمياء ، ومرورا بالطب وأصول الفقه وغيرهما .

أما الصحيفة السجادية للإمام الرابع علي بن الحسين (زين العابدين) فقد كانت مساهمة بارزة ومتميزة في مجال الكلام الإسلامي إلى درجة جعلت بعض الباحثين المحدثين ينفون نسبتها إليه ، تماما كما شكك في نسبة كل ما صدر عن مدرسة أهل البيت من فكر إلى أئمتها [١] وكان في هذا التشكيك أو النفي تعسف علمي في إصدار أحكام القيمة ليس له من مبرر إلا أنه بعض مظاهر الصراع المذهبي الإسلامي ، وليس غير .

عندما اكتشف كتاب القاضي عبد الجبار بن أحمد (شرح الأصول الخمسة) كأول مرجع موثوق للاعتزال في الإسلام ، وجدنا اعترافا أو بالأحرى نسبة للفكر المعتزلي في العدل الالهي إلى الإمام علي بن أبي طالب ،[٢] وقبله أرجع العرفانيون المسلمون ورائدهم الحسن البصري كل ما يحمله من فكر إلى الإمام علي [٣] هذا الانتساب من قبل هؤلاء وأولئك يعلله البعض بسعيهم إلى البقاء في إطار المشروعية الإسلامية في مواجهة الاتهامات العنيفة من قبل طوائف إسلامية في الإطار السني والجماعة ، بينما يحمل كتاب نهج البلاغة ، وخاصة النصوص التي تتحدث عن الإلهيات كالتوحيد والإرادة والعدل الإلهي أبرز خصائص علم الكلام الإسلامي وعلم العرفان معا ، أما الباحث الذهبي فقد اعتبر الإمام الصادق سيد العرفاء في التاريخ الإسلامي استنادا إلى مساهمته في هذا المجال ، وفي كل الأحوال فلم تكن تلك قفزة كبيرة بين عصري الأمامين علي وجعفر (رض) ، لكنهما معا سيكونان عبر ما أثر عنهما الحال ، بحث علم الكلام الإسلامي لمدرسة أهل البيت .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

علم الكلام تعبير عربي إسلامي عن مصطلح أريد به تميز الجانب الإلـــهي فـــي الفلســـفة الإسلامية ، ومع أنه حالة فلسفية فان الباحثين المسلمين أرادوا أن يتجنبوا حمل لقب الفلاسفة الذي ربما أطلقوه (أي الفلاسفة) على بعضهم في إطار الجدل الذي كان يدور فيما بينهم حول مقولات إسلامية شكلت جزءا من هذا العلم الذي يمكن تعداد أركانه دون الخوض فـــي أعماقـــه الشـــائكة المتشابكة والمعقدة .

وقد تفيد توضيحات أخرى للشهرستاني حول الموضوع فهو يعرف علم الكلام بأنه علـــم الأصول ، وهو يعني بذلك أن الأصول هي معرفة الله تعالىبوحدانيتة وصفاته ومعرفـــة الرســـل وبيناتهم ، أو بالجملة أنه كل مسألة يتعين الحق فيها بين المتخاصمين ، فمن تكلم فـــي المعرفـــة والتوحيد كان أصوليا . ومن تكلم في الطاعة والشريعة كان فروعيا ، فالأصول موضوع علـــم الكلام والفروع موضوع علم الفقه ، فكل معقول ويتوصل إليه بـــالنظر والاســـتدلال فـــهو مـــن الأصول وكل ما هو مظنون يتوصل إليه بالاجتهاد فهو من الفروع.

ويضيف الشهرستاني أن الاختلافات في الأصول حدثت في آخر أيام الصحابة ،وفي رأيـــه أن ظهور(بدعة) معبد الجهنى وغيلان الدمشقي في القول بالقدر وإنكار إضافة الخير والشر إلـــى القدر ، وقد نسج على منوالهم واصل بين عطاء وكان تلميذ الحســـن البصـــري ، وأضيـــف أن البصري كان تلميذا للإمام علي بن أبي طالب (رض)[٤] ولكن ظهور فكرة القدر ابتدأت في زمـــن الإمام الحسن (رض) ويومها ظهرت فكرة المنزلة بين المنزلتين عندما اعتزل(واصل بن عطـــاء)، وظهرت أيضا توصيفات كالرافضة عندما رفضت من قبل البعض أفكار الإمام (زيد بن علي) بعد ذلك بزمن ليس بالبعيد وقد نسب إليه مخالفة مذهب الأئمة آبائه (رض) فـــي الأصـــول أوفـــي التبرؤ من الشيخين أو من تولي الإمام علي (رض) بالنص بمعنى كون الامامه ركنا من أركـــان الإسلام . والواقع أن ظهور الكلام جاء ضرورة استوجبتها . إضافة إلـــى الظـــروف السياســـية الصراعية _ الإجابة على أسئلة مؤرقة يطرحها العقل والتأويل للقرآن وإشكاليات العقيدة الإسلامية وظهور تفاسير القرآن ، مترافقة مع هموم وجودية محضه تتعلـــق بمصـــير الإنســـان وحريتـــه والثواب والعقاب . لقد رفضت أطراف من المسلمين هذا العلم برمته منذ بدء انتشاره في مجـــالس العالم الإسلامي . وفي اعتقاد الشهرستاني (وربما كان في ذلك بعض الصحة) أن الســـلف مـــن أصحاب الحديث لما رأ وا توغل المعتزلة"في علم الكلام ومخالفة السنة التي عهدوها من الخلفـــاء الراشدين ونصرهم جماعة من بني أمية على قولهم بالقدر، وجماعة من خلفاء بني العباس علـــى قولـــهم بنفـــي الصفـــات ، وخلـــق القـــرآن تحـــيروا فـــي تقريـــر مذهـــب أهـــل الســـنة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والجماعة في متشابهات القرآن وأخبار الرسول (ص) . ومنهم أحمد بن حنبل وقبله مالك بن أنس ومقاتل بن سليمان قالوا : نؤمن بما ورد في الكتاب والسنة ولا نتعرض للتأويل . كانوا يحترزون من التشبيه إلى غاية أن قالوا من حرك يده عند قراءة قوله تعالى(خلقت بيدي) وجب قطع يده ، لأن المنع وارد في التنزيل تبعا للآية " فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنه وابتغاء تأويله " ولأن التأويل ظن منهم يتحرزون من القول من صفات الله في الظن ، معتبرين أنهم يؤمنون بظاهره ويصدقون باطنه ويوكلون علمه إلى الله تعالى لأنهم ليسوا مكلفين بمعرفة ذلك "[٥] .

ولكنا إذا علمنا أن الإمام علي (رض) وليس المعتزلة سبق الكلام في الذات والصفات كما سنرى لاحقا فلا مندوحة من الإقرار بأن علم الكلام اكتسب مشروعيته لدى أهل البيت منذ فجر الدعوة الإسلامية ولم يكن المعتزلة إلا تلاميذ لهذه المدرسة وان اختلفوا معها بدرجة أو درجات ، جازما أن هذا العلم لم يأت استجابة للفلسفة اليونانية أو غيرها ، لأن عصر الترجمة لم يكن قد بدأ بالقطع ، هذه الترجمة التي تمت بكل تأكيد في عصر المأمون ، وأن اعتبرها بعضهم استجابة لتحدي الشيعة والعرفان الشيعي في سعيه فكريا لتحطيم الدولة العباسية [٦].

يذهلنا إطلاعنا على مصير المتكلمين في قراءتنا للتاريخ الإسلامي ، ولم يكن مصير الإمام علي (ع) الفاجع اغتيالا، وهو سيد المتكلمين إلا ا شارة البدء . والعجيب في هذا الأمر أن المتكلمين كانوا في معظمهم في صف المعارضة للسلطات القائمة أموية كانت أم عباسية . حتى وبعضهم يقبع في أحضانها كما حدث في زمن المأمون وصراعه مع أصحاب الحديث والشيعة معا وتوليه للمعتزلة . ولكن مدرسة أهل البيت – وقد فرضت إيقاعها الفكري على الساحة الإسلامية – كان لتلامذتها وأساتذتهم أن يحملوا مصائرهم على اكفهم ويرحلوا عن هذه الدنيا اغتيالا كالامام علي (رض).

في عرض أمثلة عن مصائر أفراد من هذه المدرسة ربما يختلف اختلف في كون بعض من سيرد ذكرهم ، فقد تبرأ الإمام جعفر الصادق (رض) من بعضهم وسماهم بالغلاة مما جعل بعض الباحثين قدماء ومحدثين يوصفونه بالإمام المعتدل (وهذا خطأ بالتأكيد) ، ذلك أن الإمام ذاته تم اغتياله بالسم عام ١٤٨ من قبل والي المدينة رغم ذلك [٧] تبعا لبعض الروايات.

غيلان الدمشقي القائل بالقدر (وهو يعني الحرية المطلقة للإنسان في أعماله بنفي الجبر) ثم صلبه على باب دمشق عام ١٠٢ هـ من قبل هشام بن عبد الملك ، علما أن عمر بن عبد العزيز لم يفعل ذلك وعفا عنه .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

جهم بن صفوان القائل بالجبر (بمعنى أن الإنسان ليس مخيراً) قتله خالد القسري وإلى الكوفة عام ١٢٤ بتهمة الزندقة والإلحاد ، هذا الوالي الذي يعتبر سفاح المثقفين المسلمين عمليا بسبب معارضتهم للأمويين عموما ، وقد وصفه البغدادي في كتابه الفرق بين الفرق كما يلي " وكان جهم مع ضلالاته التي ذكرناها يحمل السلاح ويقاتل السلطان وخرج مع سريج بن الحارث على نصر بن سيّار "[٨] ، ولنتصور أن تهمة الزندقة والإلحاد ، كانت الأسهل لدى مخابرات النظام لقتل المعارضين إضافة إلى التشيع ، بحيث امتزجت التهمتان أحيانا ، أو لجأ بعض الشيعة إلى تفضيل تهمة الزندقة في بعض المراحل لأنها أسلم ولا تقتل صاحبها [٩].

وإذا علمنا أن جهماً وافق المعتزلة في نفي الصفات وقال أن الله لا يجوز أن يوصف من خلقه لان ذلك يقتضي تشبيها له ، لأدركنا أن الرجل كان مجرد متكلم في إطار الشرع لم يخرج عنه قيد أنمله ، ولعله كان من اشد أنصار أهل البيت (رض) ولكن الحقيقة تضيع في ذلك العهد المضطرب (رحم الله مؤرخي علم الكلام عنه كالشهرستاني والبغدادي وغيرهما).

أما هشام بن الحكم فقد لاحقته السلطة لقتله ولكنها لم تعثر عليه [١٠] مما أدى إلى أن يموت مطارداً ويدفن سرا في زمن الرشيد . في هذا السياق يرجح أنّ كثيرا من اتهامات وجهت للمتكلمين ووجدناها في الكتب (علماً أن كتبهم فقدت) ربما كانت مجرد تقارير استخبارية مرفوعة للسلطات بحيث جاء ترديد الشائعات تلك المصدر الأساسي لتاريخ بعض مضامين (الملل والنحل) في الحضارة الإسلامية .

وأخيراً تجب الإشارة إلى الإمام أبي حنيفة النعمان الذي تم اغتياله من قبل المنصور عام ١٥٠ هـ بسبب تشيعه وتأييده لثورات أولاد عبد الله بن الحسن ضد السلطة العباسية ، ويقال انه قتل بالسم في سجنه ببغداد [١١] ويعتبر أبو حنيفة من كبار أصحاب الرأي والكلام .

ما هو علم الكلام ؟ وهل يستحق أن يسمى علماً ؟

تتلخص العناصر الرئيسية فيه [١٢] وغالبيتها تعتبر جزءاً هاماً من مقولات مدرسة أهل البيت الكلامية - كما يلي :

يتألف علم الكلام من أربعة أركان هي : =

١- المقدمات .

٢- تقسيم المعلومات .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٣- النظر في الذات والصفات .

٤- الكلام في الأسماء .

وفي توضيح موجز للأركان الأربعة لإلقاء الضوء على ماهية الكلام :

الركن الأول :

المقدمات : وتنقسم إلى ثلاثة أقسام: .

١- **العلوم الأولية أو الأوليات** :

وهي الأساسيات التي يستند إليها علم الكلام كالتصورات والتصديقات ، فإذا اعتبرنا أن التصورات هي المطلوبات والماهية ، ارتبط ذلك بأن النفس تطلب لتصور ماهية كائنات كالملك والروح على سبيل المثال ، أما للتفسير أو البرهان على الوجود ، وكلا الأمرين تصديق : فالتصديق هو إطلاق الحكم فقط من غير أن يدخل التصور في مفهوم هذا الحكم فنحن نحكم بوجود ملك وروح دون أن يدخل التصور في مفهومها دخول الجزء في الكل : التصور أذن هو الإدراك الساذج ، فكثير من الأشياء نعلم تفسير ألفاظها ونحس بوجودها ونعلمه دون أن نتصور ماهيتها لان ذلك متعذر ، كالحركة والزمان والمكان ، ترتبط التصديقات بالبديهيات رغم أنها ليست كلها بديهية ، فهي دائماً تتناهى إلى الاحساسات والوجدانيات أو البديهيات تبعا لذلك .

٢- **الدليل اللفظي وأقسامه :**

الدليل اللفظي من شخص ما لا يفيد اليقين إلا عند تيقن أمور عشرة :

كالعصمة - وعدم الإضمار - التأخير والتقديم - النسخ وانعدام المعارض العقلي الذي لو كان لرجح عليه ، إذ أن ترجيح النقل على العقل يقتضي القدح في العقل المستلزم للقدح في النقل لافتقاره إليه ، (وإذا كان المنتج ظناً فما ظنك بالنتيجة) ثم عدم الاشتراك - والمجاز - والنقل والتخصيص بالأشخاص والأزمنة .

وكما نرى فان جدلية الدليل ترتبط جذريا بعلوم الفقه وعلم الحديث النبوي بأكثر تخصيصاً.

٣- **إحكام النظر:**

وهو ما يتعلق بترتيب التصديقات كي يتوصل بذلك إلى تصديقات أخرى. وجوب النظر بدءاً في أن معرفة الله واجبة ، ووجوب النظر سمعي ، وأن حصول العلم تتم عقب النظر الصحيح بينما لا يستلزم النظر الفاسد الجهل ولا يستلزمه بمعنى أن حضور مقدمتيه في الذهن منطقياً لا يكفي لاستخلاص نتيجة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الركن الثاني : تقسيم المعلومات وهي تتعلق :

أولا : أحكام الموجودات :

ومن موضوعاتها أنّ المعلوم إما أن يكون موجوداً أو معدوماً ، فتصور الوجود والعدم بديهي لان التصديق يتوقف على هذين التصورين وما يتوقف عليه البديهي أولى أن يكون كذلك (أي بديهي) لأن العلم بالوجود جزء من العلم أنّه موجود (هذا بالطبع يتعلق بالدليل الانطولوجي على وجود الله سبحانه وكل ما يرتبط به) فإذا كان العلم بالمركّب بديهياً كان العلم بمفرداته تبعاً لذلك بديهياً .

في المعدوم : فالمعدوم تميّز وكل متميز ثابت فالمعدوم ثابت ، وهو إما أن يكون ممتنع الثبوت ويصبح نفياً محضاً وأما أن يكون ممكن الثبوت وهو نفي محض أيضاً ، فهل أن وجود السواد زائد على كونه سواداً ، وهل يجوز أن تخلو تلك الماهية أي السواد من صفة الوجود ؟ أطراف من الاشاعرة يرفضون فكرة المعدوم الثابت بحجة أننا يمكن أن نحكم على وجود شريك لله بالامتناع عن انه متميز ، ويقول المعتزلة أن المعدومات الممكنة قبل دخولها في الوجود تكون ذوات أعيان وحقائق ، وأن تأثير الفاعل ليس في جعلها ذوات بل في جعل تلك الذوات موجودة ، أما الفلاسفة فقد اتفقوا على أن ماهيات الممكنات غير وجوداتها وانه يجوز تعرّي تلك الماهيات عن الوجود الخارجي ، فنحن نعقل المثلث حتى لو لم يكن له وجود خارجي ، ثم أنه كل ما يجب بغيره يرتفع أو ينتفي مع ارتفاع ذلك الغير .

بالنسبة للصفات فإنها تحصل في زمان الوجود ، الذوات المعدومة تتساوى في كونها ذوات رغم أنها تختلف في الصفات ، أما الجوهرية فهي تتسم بالتحيز – وهكذا فان شرط كون المتحيز حاصلاً في الحّيز هو وجوده ، ذلك أنه قبل وجوده موصوف بالتحيز ولكنه غير حاصل في الحّيز .

وجاء رأي مخالف لهذا ، يقول (ابن عباس) أن الجوهر في حال العدم يمتنع عن اتصافه بالتحيز ويمتنع أيضاً عن اتصافه بالجوهرية ، ولهذا اثبت أن الذوات في هذا الحال خالية من الصفات ، منكرا أن يكون للمعدوم صفة ولا يمكن أن تكون حتى أجساماً .

استطراداً : فلا واسطة بين الموجود والمعدوم لكن بعض المتكلمين أثبتوا واسطة سموها الحال ، وعرفوها بأنها صفة لموجود لا يوصف بالوجود أو العدم (بأن صفات الله أقوال وليست زائدة عن الذات) فالوجود أخص من الثبوت ، والموجود بهذا الاعتبار كل ذات ليس لها صفة الوجود فالصفة لا يكون لها ذات فهي لا موجودة ولا معدومة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

من هنا يمكن التفريع على القول بالحال : فالحال المعلل : كالعالميّة المعللة بالعلم ، كما هو الحال غير المعلل كالسواد مثلا ، وبهذا الاعتبار فالموجودات تكون متساوية في الذوات ومختلفة في الأحوال .

ثانياً: - تقسيم الموجودات :

الموجود أما أن يكون ثابت الوجود لذاته وهو الله سبحانه ، وأما أن يكن ممكن الوجود لذاته وهو كل ماعدا الذات الإلهية .

الموجود أما أن يكون قديماً أو حديثاً فلا أول لوجوده تعالى فهو قديم ، أما المحدث الوجود فهو كل ماعداه ، وفي هذا المجال فلا مندوحة من عقد مقارنة بين مقولات الفلاسفة ومقولات المتكلمين (وهو ما ورد لدى الرازي) ولم أجد أفضل ما يمكن عقده من مقارنة .

قالت الفلاسفة : عندما نقول كان الله موجوداً في الأزل فذلك يستلزم انه أما أن يكون عدمياً أو وجودياً والأول باطل وإلا لكان قولنا موجود في الأزل ثبوتي فيكون المعدوم موصوفاً بالوصف الوجودي ، وهو محال فثبت أن ذلك المفهوم وجودي ، فهو إما أن يكون عين الله تعالى أو غيره ، والأول محال لان كونه في الأزل غير جامل الآن وإلا لكان هو الأزل وكل ما وجد الآن وجد في الأزل وهذا خلف ، لكن ذاته حاصلة الآن فكونه في الأزل أمر زائد وذلك الأمر كان موجوداً في الأزل ، وقد كان في الأزل مع الله تعالىغيره ، ثم أن ذلك الغير هو الذي يلحقه معنى (كان) ويكون لذاته وذلك هو الزمان والزمان موجود في الأزل " .

يقول المتكلمون :" بمعنى كونه تعالى(قديماً) أنا لو قدرنا أزمنة لا أول لها لكان الله تعالىموجوداً معها بأسرها ، يقرر ذلك أنا لو اعتبرنا الزمان في ماهية الحدوث والعدم لكان ذلك الزمان ، أما أن يكون قديماً أو حادثاً ، فان كان قديماً ، مع أنه ليس له زمان آخر ، فقد صار القدم معقولا من غير اعتبار الزمان، وإذا عقل ذلك في موضع فليعقل ذلك في كل موضع وان كان حادثاً لم يعتبر في حدوثه زمان آخر لاستحالة أن يكون للزمان زمان آخر ، وإذا عقل الحدوث في نفس الزمان من غير اعتبار زمان فليعقل مثله في سائر المواضع " .

ويلاحظ أن جدلية ربط الزمان بالذات الإلهية ظلت من اعقد المواضيع التي واجهت المتكلمين والفلاسفة معا ذلك أن الله سبحانه مبدع الزمان دون ارتباط به ، وتلك إشكالية بالغة التعقيد في الفكر الإنساني .

القديم يستحيل إسناده إلى فاعل ، لذا برزت إشكالية جديدة حول الذات والصفات فالأشاعرة يقولون أن الصفات بدعة ولكن لا هي الذات ولا غيرها ، فلا يطلبون المعلولية عليها

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ذلك أن العلم مثلا صفة قديمة معللة بالذات ، وما سوى الله وصفاته أمر محدث لكن الجميع أقروا بإعطاء معنى القديم للصفات عملياً، لكن الأ شاعرة بالذات رفضوا إطلاق لفظ القديم عليها لأنـــها شيء من السلوك الإلهي خارج عن الذات ، بينما أقرت مدرسة أهل البيت والمعتزلة بـــإصرار أن الذات والصفات شيء واحد ، فصفات الله المتصلة بأسمائه الحسنى هي عين ذاته .

ثالثا : تقسيم الممكنات :

الحال يكون سببا لقوام المحل ، إما بان يقتضي وجود المحل ثم تصير نفسه حالةً فيـــه أو بـــأن يقتضي الأثر حلول مؤثّرٍ فيه ... وذلك يقود إلى مقولتي المتناهي واللامتناهي .

الزمان ليس موجودا لأنه مقدار الحركة ، لأنه لو كان أمراً موجوداً وجودياً لزم التسلســل الذي ليس له نهاية وهذا مرفوض ، وقد قرر الإمام جعفر الصادق (رض) أن الزمان أمر نسبي أي أنه نسبة إلى جسم أو شيء ، وليس موجودا بذاته [١٣] ، وامتداد الحركة لا وجـــود لـــه فـــي الإيمان لان الامتداد لا يحصل إلا عند حصول جزئين على الأقل ، والجزءان لا يحصلان دفعـــة واحدة بل أنه عند حصول الأول فالثاني غير حاصل وعند حصول الثاني فالأول ثابت ، وإذا لـــم يكن للحركة وجود في الأعيان لم يكن لمقدار هذا الامتداد وجود لاستحالة قيام الموجود بالعدم .

رابعاً : تقسيم المحدثات :

المحدث إما أن يكون متحيزاً أو قائماً بالمتحيز أو لا متحيز ولا قائم بالمتحيز مثلا : هـــل البرودة عدم الحرارة أو هل الظلمة عدم الضوء ؟ أو أن الثقل زائد عن الحركة أو أن اللين هـــو عدم الممانعة للغافر ؟ الحركة بهذا الاعتبار تكون عبارة عن حصول الجوهر في حيز بعد آن كان في حيز آخر ، فالحركة والسكون ماهيتا الحياة والموت .

كل هذا يستلزم أمورا مستنبطة مثل المعدوم غير المعلوم : فما لا يمكن تصوره لا يصـح الحكم عليه وبما أن العقل مناط التكليف ، وهو الذي يحكم وهو العلم بوجوب الواجبات واســتحالة المستحيلات كانت القدرة عرضاً وليس جوهراً ، فلو تقدمت على العقل لاستحال أن يكون قـــادراً على الفعل لان حال وجود القدرة ليس إلا عدم الفعل والعدم المستمر يستحيل أن يكون مقـــدروا ، وبذلك فانه حال حصول الفعل فلا قدرة بعد .

<u>الركن الثالث من أركان علم الكلام</u> : النظر في الذات والصفات والأفعال والأسماء :

١- مدبر العالم واجب الوجود أو جائز الوجود يفتقر إلى مؤثر آخر ويتسلل حتى ينتـــهي إلى واجب الوجود (وذلك هو أول البراهين على وجود الله باعتبار أن العالم له صانع حتما).

٢- **في الصفات** : تنقسم الصفات بأنها : إما سلبية أو ثبوتية : السلبية تعني : أن ماهيـــة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الله تعالىمخالفة (بمعنى ليست) كسائر الماهيات بعينها .

بعض المعتزلة قالوا (أبو هاشم) : أن الله مساير لسائر الذوات في الذاتية وإنما تخالفها بحالة توجب احوالاً أربعة : هي : الحياة – والعالمية – والموجودية – والقادرية.

وقال ابن سينا : أن ماهية الله عين وجوده والوجود مسمى مشترك فيه من كل الموجودات وامتاز عن الممكنات بقيد سلبي وهو أن وجوده (غير) غارض لشيء من الماهيات . وسائر الموجودات عارضة .

قال الا شاعرة : أن مخالفته لغيره لو كانت بصفة لحصلت المساواة بالذات ، ولو كان كذلك لكان اختصاص ذاته بما به يخالف غيرها ، إن لم يكن الأمر كان غنيا عن السبب وهو محال (وهي كما نرى فكرة تحمل من الغموض ما يبعدها عن العقلانية أصلا وتلك سمة بحوث الاشعري برمتها ، رحمه الله) .

ومن الصفات السلبية أن الله غير مركب ، غير متحيز ، لا يتحد بغيره ، لا يحل في شيء ليس في جهة ، لا يجوز قيام الحوادث بذاته (أي كل شيء فيه قديم) هو أمر خلافي إشكالي في علم الكلام الإسلامي وانه يستحيل عليه الألم .

الصفات الثبوتية هي : القدرة ، العلم ، الحياة ، الإرادة ، السمع ، البصر ، الكلام ، (البقاء، على أنه باق ببقاء يقوم به ، وقد نفى ذلك بعضهم بان الله لا يعلل بمعنى) ثم شمولية علم الله : فهو يعلم ذاته ، فلو اختصت عالميته بالبعض دون البعض لافتقر إلى مخصص .

يقول الدهريون من المتكلمين : أن العلم أمر إضافي فلو علم ذاته لكانت ذاته مضافة إلى نفسه وقد رد عليهم بمثال الإنسان الذي يعلم نفسه ويبقى هو .

الله قادر على كل شيء وهو عالم بالعلم ، قادر بالقدرة حي بالحياة ، هنا يفسر المعتزلة مقولة الصفات عين الذات بأن العلم نفس العالمية ، والقدرة نفس القادرية إذا اعتبرناهما زائدتين على الذات فإنهما ليستا كذلك بل هما أحوال والحال لا تعلم ولكن تعلم الذات عليها .

ويقرر المعتزلة أن كلام الله محدث ويرد عليهم الاشاعرة بان كلام الله قديم لأن الكلام لو كان محدثاً ، لكان إما أن يحدث في ذات الله تعالىفتكون الذات محلاً للحوادث وهو محال أو أن الكلام لا يحدث فيه وهو محال أيضاً ، أما الحال فهو أن الكلام صفة وصفة الشيء يستحيل أن لا تكون حاصلة فيه وإلا لجاز أن يكون الجسم متحركاً حركة قائمة بالغير وذلك محال ، أذن الكلام قديم .

الحل الوسط : رأي الرازي يقول : كلام الله القديم لم يكن في الأزل أمراً ولا نهياً ولا

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

خبراً ، ثم صار فيما لا يزال كذلك ، فأما الكلام الذي يغاير الحروف والأصوات ويغاير ماهيـــة الأمر والنهي والخبر فغير معلوم التصور ، فكون القول بثبوته لله تعالىفي الأزل محض جهالـــة وهو بهذا الإقرار ينحاز إلى المعتزلة جزئياً .

ومن الآراء الأخرى في الصفات : أن الظاهريين من المتكلمين زعموا أن لاصفة لله وراء تلك السبع أو الثمان صفات التي عددناها بينما ينطلق الاشاعرة إلى إثبات : أن اليد (كمـــا وردت في القرآن الكريم) صفة وراء القدرة ، والوجه صفة وراء الوجود والاستواء صفة بحـــد ذاتـــه ويضيف الاسفرايني إلى صفات السلب صفة انعدام مكانية الله ، ويضيف القاضي المعتزلي ثلاثـــة أخرى كالشم والادارك واللمس مقرراً أن : القدم وراء البقاء والعالمية وراء العلم الخ ... **وكعادته يلجأ الرازي إلى حل وسط فيقول** : لا دلالة على وجود هذه الصفات ولا على نفيها فيجب التوقف لأنا أمرنا أن نعرف من صفات الله ما يؤدي إلى القدرة التي يتوقف عليها العلم وتصديق رســـول الله (ص) (وهكذا تبرز فكرة التوقف عن السؤال كإحدى الأفكـــار البـــارزة فـــي علـــم الكـــلام الإسلامي) .

ومن هنا ينطلق المتكلمون إلى التساؤل : هل علينا أن نعرف حقيقة الله تعالى: ويجيـــب الغزالي بلا ، أما الاشاعرة وبعض المعتزلة فأجابوا : نعم نعرف وجوده ، وذلك أن وجوده عيـــن ذاته فلا بد وان نعلم ذاته وإلا لكان الشيء الواحد بالاعتبار الواحد معلوماً ومجهولاً .

فأما أن نعلمه بالسلب كقولنا : ليس بجسم أو ليس بعرض الخ ... أو بالإضافة كقولنا عـالم قادر الخ ... فالعلم بماهية الصفة لا يستلزم العلم بماهية الموصوف ، ولكـــن هـــل الله ســـبحانه خاضع للتصور : ويجيبون : لا ، فلا يمكننا أن نتصور شئياً إلا الذي تدركه حواسنا أو نجده فـــي نفوسنا أو نتصوره وتركّبه عقولنا ، أو ما يتركب عن هذه الثلاثة : الحواس والنفـــس والعقـــل ، ولهذا فان النفس الإلهية خارجة عن هذه الأقسام وليست معلومة كماهية .

<u>٣- رؤية الله تعالى:</u> وجدليتها معروفة ومستفيضة بين الفرقاء : المعتزلة ومدرسة أهـــل البيت ، يرفضون الإمكان أما الاشاعرة فيحددون الرؤية بطريقة غير البصر الإنســـاني الحـــالي مقرين بأن الإنسان لابد أن يدرك الحقيقة يوم القيامة بشكل ما ، ورؤية الله من بينها .

<u>٤- الإرادة :</u> تتعلق جدلية الإرادة عند الذات الإلهية بأن خالق الشيء مريد لوجوده ولأنه عالم أن الإيمان لا يوجد في الكافر كان وجوده في الكافر محالاً ، فيكون الله عالما بكونه محـــالاً ، والعالم بكون الشيء محالاً لا يريده فيستحيل أن يريد إيمان الكافر ، لكنه أمـــر الكـــافر بالإيمـــان والأمر يدل على الإرادة ، فهل أن الكافر يطيع الله فيكفر .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

واختلفت الآراء : فالاشاعرة يقولون : أن الأمر يدل على الإرادة ، فالطاعة موافقة الأمر لا موافقة الإرادة ، وبهذا يكون الكفر ليس نفس قضاء الله بل من متعلقات هذا القضاء ، فنحن نرضى بالقضاء لا بالمقضي ، وكما نرى بأن في هذا التعليل حالة من التبرير اللفظي لا أكثر ومع ذلك فلا مخرج آخر لهذه الإشكالية .

الحسن والقبح هل هما عقليان أم شرعيان موجبان للثواب والعقاب والمدح والذم ؟

رأي الاشاعرة انهما شرعيان بينما جاء رأي مدرسة أهل البيت والمعتزلة انهما عقليان فلا يأمر الله بالقبيح ولا يعاقب عليه تبعاً لذلك .

من هنا يأتي مدخل التقييم والقيم ، فمتى يكون الصدق قبيحاً ويصبح الكذب جميلا ومشروعاً ؟

الجواب : أن ذلك يتم عند الاضطرار وتدخل النسبية والذرائعية في تعليل الجميل والقبيح الشخصيتين ، لكن الحكم المطلق على الجمال والقبح بحد ذاتهما يبقى قائماً رغم أوامر الشرع.

هل يجب على الله شيء : الاشاعرة ينفون الإيجاب ، والمعتزلة ومدرسة أهل البيت يقرونه استنادا لآيات كثيرة من القرآن :(و كان حقاً علينا نصر المؤمنين) هل يجدر أن يعذب الله أهل الجنة ويثيب أهل النار ؟ المعتزلة ومدرسة أهل البيت يرفضان ذلك بينما يجّوزه الاشاعرة تبعا لحديث الرسول (ص) عندما سئل : هل يدخل الإنسان الجنة عمله ، قال : لا ولا حتى أنا إلا أن تداركني رحمة الله .

الركن الرابع : الكلام في الأسماء :

١- **في الثبوت** : ويأتي على رأس ذلك مسألة العصمة .

العصمة :هل هي عدم القدرة على إتيان المعاصي ؟ يرى الاشاعرة أنها ليست كذلك بل هي إيجابية تعنى القدرة على الطاعة ، وإلا لم يكن ممكنا توصيف الأنبياء بأنهم أولي العزم ، بينما أقرت مدرسة أهل البيت والمعتزلة بأنها الطهارة المطلقة وعدم القدرة على إتيان المعاصي حفظا للهداية على الأرض، بتسديد من الله. تبعا لذلك هل يجوز حصول الكرامات من الأشخاص وهل الأنبياء أفضل من الملائكة ؟ والجدل الدائر بين المتكلمين حول ذلك معروف .

٢- <u>في ماهية الإنسان</u> : انقسم المسلمون في جدلية الإنسان بين متكلمين وفلاسفة فبينما أقر الفلاسفة تبعاً لتراث الفلسفة اليونانية بثنائية الإنسان متفقين بذلك مع المتكلمين ، كان الخلاف حول طبيعة الروح : هل هي قديمة أم حادثة ، وقديماً اختلف أفلاطون وأرسطو حول ذلك فأقر أفلاطون بقدم الروح بينما نفى ذلك أرسطو ، وتبعا لذلك أقر أفلاطون بتناسخ الأرواح ورفض

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أرسطو معتبراً أن روح الفنان لا يمكن أن تحل في فحام .

أقر المتكلمون المسلمون أن الروح خالدة باستطراد أن السعادة تكون للنفوس التقية العالمة والشقاء من حظ النفوس الجاهلة ، ويدخل في هذا الموضوع ماهية النفس الناطقة وقضيـــة إدراك الجزئيات ، وبما أن الله يعدم الجسد الحاوي للنفس فهل يعود المعدوم وهل تعود الأجـــزاء بعـــد تفرقها : يقر المتكلمون المسلمون ذلك ، بينما يرفضه الفلاسفة منهم قائلين انه لم يثبت بدليل قاطع إن الله يعدم الأشياء ثم يعيدها ، ذلك أن ما يعود هو غير ما كان .

ويتعلق كل ذلك بفكرة المعاد أو يوم القيامة : فهل البعث بدنـــي أم روحـــي ، بـــالبدن أم بالروح فقط وعلى أي شيء يقع العذاب والثواب ، وكيف يمكن توصيف أو تعريف كلمات عديـدة من السمعيات كعذاب القبر والصراط والميزان وإنطاق الجوارح وتطاير الكتب وأحوال أهل الجنة والنار .

لقد أقر الجميع أن كل تلك المصطلحات ممكنة الحدوث ولكن بدرجات .. ولجأ الفلاســـفة وبعض المتكلمين المسلمين إلى أنها مجازات وليست عينيات ، وظل الجدل أو محاولـــة التعليـــل تدور في إطار لغوي وعقلي لم يؤد إلى يقينيات محددة .

وفي هذا الإطار جاء الجدل حول وعيد الكبائر ومرتكب الكبيرة ، هل هم في الجنة أم فـــي النار؟ وبنيت فكرة المنزلة بين المنزلتين لدى المعتزلة ، ودخل في الحوار موضوع الإيمان هـــل يزيد أم ينقص ، واتصل ذلك بالثواب والعقاب ، فقيل أن صاحب الكبيرة مؤمن مطيـــع بإيمانـــه عاصٍ بفسقه ، أما الكفر المعاقب فهو عبارة عن أفكار ما علم بالضرورة من مجيء ، رسـول الله (ص) .

٣- جدلية الإمامة : اتفق الجميع بدرجات على وجوبها إما عقلاً أو سمعاً وتتميز مدرسـة أهل البيت بإقرارها بوجوبها العقلي على الله تعالى، بينما أوجبها الآخرون ســمعياً علـــى الخلـــق ويرفض الخوارج كل ذلك : وجاء في تعليل الوجوب العقلي على الله أن ذلك يتعلق بثلاثة أســباب وهي :

١- اللطف الإلهي بعباده فلا يتركهم هملاً.

٢- ضرورة وجود العارف بالله وذلك يتعلق بالإمام .

٣- التعليم : فالإمام هو المعلم وناقل العلم عن رسول الله (ص) وحافظه .

هل كان علم الكلام في إطار الشرع ؟:

ليس من شك في أن بزوغ هذا العلم بأركانه التي عرفناها جاء استجابة لحاجـــة إنســـانية

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مشروعة يقتضي الإجابة على أسئلة يطرحها الدين الإسلامي وكل الشرائع معه .

فقد أمر الله الناس بالتفكر في خلق السماوات والأرض بكل ما في ذلك التفكر من بـــروز من تساؤلات تطمح إلى إجابات أو مشكلات تقتضي حلولاً .

لقد خاض في علم الكلام حتى الذين طلبوا التوقف بحجة أن الصحابة لم يفعلوا ذلك ، وهـم من المحدثين وعلى رأسهم الحنابلة (كما أشرنا) وجاء استخدام الاشعري ومدرسته لـــهذا العلـم استجابة لتحدي العصر كما يعلل بعضهم [١٤] ، وكان المتصوفة العرفانيون قد ســبقوا المتكلميـن بزمن ، لكن ما أثر عن الإمام علي بن أبي طالب (رض) من أحاديث يقطع الشك باليقين فـــي أن الكلام بدأ في فجر الإسلام وأن الإجابة على أسئلة الناس حول الذات والصفات والعـــدل وقصـة الخلق بدأت في زمن الرسول ذاته صلوات الله عليه .

أما الفلسفة فهي قديمة جدا ، وإشكاليتها كبيرة ، لهذا ميز المسلمون بيـــن الفلســفة وعلـم الكلام ، فهم شرعوا الكلام ولم يشرعوا الفلسفة ، ومن أجل ذلك حددوا تخوم كل منهما ، رغم أن تلك التخوم لم تكن بالوضوح الذي حاول البعض أن يبينوه وخاصة الغزالي ، فقد اختلـــط الكـــلام بالفلسفة في نواح كثيرة ، وهنا لابد من الاعتراف بأن مدرسة أهل البيت فرضت إيقاعها في علـم الكلام الإسلامي .

عند الإمام علي (رض) فيما جمع من كلامه نصوص تحتوي معظم أركان الكلام الأربعة ، في خطبته المسجلة في بداية نهج البلاغة يقول : [١٥]

" أول الدين وكمال معرفته التصديق به وكمال التصديق به توحيـــده ، وكمـــال توحيـده الإخلاص له وكمال الإخلاص له نفي الصفات عنه لشهادة كل صفة أنـــها غـير الموصـــوف ، وشهادة كل موصوف انه غير الصفة .. فمن وصف الله سبحانه فقد قرنه ومن قرنه فقـــد تنـــاه ، ومن تناه فقد جزأه ، ومن جزأه فقد جهله .." ومن أشار إليه فقد حدّه ، ومن حدّه فقد عدّه ، ومـــن قال فيم فقد ضمنه ، ومن قال علامَ فقد أخلى منه ."

من هنا انطلق المعتزلة في نفي الصفات وبأنها عين الذات ، لقد شـــكل الاعـــتزال تيـــاراً مستقلاً عن مدرسة أهل البيت لكن ، وعندما قرن باحثون بين فكر تلك المدرسة والاعتزال فقـــد أشاروا إلى تأثرها بمدرستهم ، ومضى بعضهم بعيدا فزعموا أخذ أهل البيت عنهم وفـــي ذلـك تعسف كبير .. ونتبع مع النص :

" أنشأ الخلق إنشاءً وابتدأه ابتداءً ، بلا روية أجالها ولاتجربة استفاها ولاحركة أحدثـها(..) ثم أنشأ سبحانه فتق الأجواء ، وشق الأرجاء ، وسكائك الهواء فأجرى فيها ماء متلاطمـــا تيـــاره

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

متراكماً زخّاره حمله على متن الريح العاصفة والزعزع القاصفة ، فأمرها برده وسلطها على شده وقرنها إلى حده ، الهواء من تحتها فتيق ، والماء من فوقها دفيق ثم أنشأ سبحانه ريحا اعتقم مهبها (..)" إلى أن يقول عن إنشاء الماء على الأرض متحدثا عن البحر:-

"فرفعه في هواء منفتق وجو منفهق فسوى منه سبع سماوات جعل سفلاهن موجاً مكفوفاً وعلياءهن سقفاً محفوظاً وسمكاً مرفوعاً ..

في هذا النص نلمس جدلية القديم والمحدث في قصة خلق الكون فالإمام ينفي قدم العالم وإمكانية الحدوث في الذات الإلهية معاً، وهو ما كان موضع جدل طويل بين المتكلمين في مسألة الخلق ، جاء كلام الإمام علي هنا ليشكل خطوطاً عريضة لمواضيع علم الكلام كلها تقريبا ، والباحث عندما يقر بصحة نسبة هذا الكلام للإمام رضي الله عنه فلا مناص من إقراره بأن تلك أحاديث سمعها من رسول الله تبعا لحديث الرسول القائل : أنا مدينة العلم وعلى بابها ، ولا جدوى من رفض أن تلك الموضوعات مما لم يتطرق إليه الرسول لأنه لم يكن متداولاً في أجواء المدينة المنورة .

ويروي عن الإمام علي (رض) في تفسيره للعدل الإلهي قوله في إجابته على سؤال أحد المشاركين في موقعة صفين عن الجبر والثواب والعقاب فقال [١٦] :" ما هبطنا واديا ولا علونا قلعة إلا بقضاء الله وقدره فأجابه : السائل : عند الله احتسب عنائي مالي من الأجر شيء. "

فأجابه الإمام : بل أيها الشيخ عظم الله لكم الأجر (..) لم تكونوا في شيء من حالاتكم مكرهين ، فقال الشيخ : وكيف ذلك ،القضاء والقدر ساقانا وعنهما كان مسيرنا أجاب : لعلك تظن قضاء واجباً وقدراً محتماً ، لو كان كذلك لبطل الثواب والعقاب وسقط الوعد والوعيد ولما كانت تأتي من الله لائمة لمذنب ، ولا محمدة لمحسن ولا كان المحسن بثواب الإحسان أولى من المسيء ولا المسيء بعقوبة الذنب أولى من المحسن ، تلك مقالة إخوان الشياطين وعبدة الأوثان وخصماء الرحمن ، وشهود الزور (..) إن الله تعالى أمر تخيراً ونهى تحذيراً ، ولم يكلف مجبراً ولا بعث الأنبياء عبثاً " ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار " .. إنما ساقنا أمر الله بذلك وارادته ثم تلا " وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً".

ربما يجدد هذا النص للإمام جذر التمييز بين القضاء وبين الإرادة في الذات الإلهية ، هذا التمييز الذي يحتاج لفهمه إلى صفاء نفس عارفة ، يبدو كأنما يمثل إجابة موجزة تشكل عنوانا لكل مباحث الجبر والاختيار والعلم والإرادة والقضاء والقدر ، ولم يكن جهد المتكلمين عملياً إلا سعياً لمزيد من التفسير ، فهل خرجوا في ذلك عن إطار الشرع الإسلامي ؟

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لكن بعض المتكلمين فرقوا بين العلم والإرادة عندما أقروا بأن العالم بالشيء مريد له ، ولا مجال للحدوث في القديم ومن هذا الاختلاف كانت فروع المتكلمين ضمن الكثير مما اختلفوا فيه ولم يخرج ذلك ابداً عن إطار الشرع ، فقد ثابروا جميعاً على الدوران في فلكه رغم صراعاتهم التي تحدث عنها التاريخ .

من نهج البلاغة نصوص كثيرة في العرفان الإلهي شكلت منطلقاً للمتصوفة المسلمين في مؤلفاتهم العديدة التي أرجعوها إلى كلام الإمام علي ، ولا مفر من الرجوع إليها في مظانها بما في ذلك مصادرها في النهج ، ولم تكن نظرية الإمامة التي أصبحت صلب علم الكلام لدى مدرسة أهل البيت وخاصة في زمن الإمام جعفر بن محمد (الصادق) ، في عصر مختلف بالسمات في منتصف القرن الأول الهجري ، فقد أخذت مكانها في علم الكلام الإسلامي بما في ذلك الشروط والصفات ، وخاصة مسألة العصمة والنص الالهي . لقد شغلت هذه النظرية المتكلمين لدى كل الأطراف في مرحلة الصادق باعتبارها ركناً أساسياً من أركان هذا العلم لاتصالها بنواحي أخرى تتعلق بمسائل سياسية وصولاً إلى تحديد المرجعية في الإسلام .

عرف عن الإمام الصادق (رض) كلامه فيها ، ونقل تلاميذه جوانب أخرى وضحت جوانب من كلام مدرسة أهل البيت في إجابتها عن أسئلة مستجدة قديمة في الآن ذاته ، ومنهم أهم تلامذته هشام بن الحكم .

بدءاً ، ننقل مختصراً لبعض أقوال الإمام الصادق في الإمامة [١٧] ملخصاً:

"أن الأرض لا تخلو من إمام كيما إذا زاد المؤمنون شيئاً ردهم ، وان نقصوا شيئاً أتمّه لهم – وهي واجبة على الله ، إذ أنه أعظم من أن يترك الأرض بغير إمام عادل ، فهي إمامة إلهية يكون فيها للائمة ما للأنبياء إلا انهم ليسوا بأنبياء (..) هم كصاحب موسى أو ذي القرنين ، كانا عالمين ولم يكونا نبيين . وإذا كان للائمة ما للأنبياء فان طاعتهم سواء وحجتهم واحدة ، ذلك أن الله أنزل من لدنه روحاً يسدد بها خطاهم ويعصمهم بها ، حسب قوله تعالى" وكذلك أوحينا إليك روحاً من امرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان " وقد نزل ذلك الروح على محمد (ص) ما صعد إلى السماء وإنما بقي في صدور الأئمة ، والإمامة بعد النبي لوصيهِ علي ثم للحسن والحسين ثم ذرية الحسين من بعده ، لم يزل الله يختارهم من ولد الحسين من عقب كل إمام يصطفيهم لذلك ويجتبيهم ويرضى بهم لخلقه ويرتضيهم ، كل ما مضى منهم إمام نصب لخلقه من عقبه إماماً بيناً وهادياً نيراً وإماماً قيماً ، وحجة عالماً أئمة من الله يهدون بالحق وبه يعدلون حجج الله ودعاته ورعاته على خلقه، يدين بهديهم العباد وتستهل بنورهم البلاد وينمو

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ببركتهم التلاد ، جعلهم الله حياة للأنام ومصابيح للظلام ومفاتيح للكلام ودعائم للإسلام ، وجـرت بذلك فيهم المقادير على محتومها ، فالإمام هو المنتجب المرتضى والـهادي المنتجـى ، والقـائم المرتجى ، اصطفاه الله بذلك واصطنعه على عينه في الذر حين ذرّاه ، وفي البريه حين رآه ظـلا مثل خلق نسمة عن يمين عرشه ، محبواً بالحكمة في عالم الغيب عنده ، اختاره بعلمـه وانتخبـه لطهره ، بقية من آدم وخيرة ذرية نوح ومصطفى من آل إبراهيم وسلالة إسماعيل وصفوة مـن عترة محمد ، ولم يزل مرعياً بعين الله يحفظه ويكلأه بستره ، مطروداً عنه حبائل إبليس وجنـوده مدفوعا عنه وثوب الغوا سق ونفوث كل فاسق مصروفا عنه قوارف السوء ، مبرأً من العاهـات محجوباً من الأفّات ، معصوماً من الفواحش كلها ، معروفاً بالحلم والبر في يفاعه ، منسوباً إلـى العفاف والعلم والوصل عند انتهائه ، مسنداً إليه أمر والده ، صامتاًعن النطق فـي حياتـه فـإذا انقضت مدة والده إلى أن انتهت مقادير الله إلى مشيئته ، وجاءت الأرادة من الله فيه إلى محبتـه ، وبلغ منتهى مدة والده فمضى ، وصار أمر الله إليه من بعده وقلده فيه وجعله الحجة على عبـاده وقيّمه في بلاده وأمدّه بروحه وأتاه علمه وأنباه فصل بيان علمه واستودعه سـره ، واسـتحفظه علمه واستجباه حكمته واسترعاه لدينه وانتدبه لعظيم أمره ، وأحيا به منـاهج سـبيله وفرائضـه وحدوده ، فقام بالعدل عند تحير أهل الجهل ، وتحيز أهل الجدل بالنور الساطع والشفاء النـافع ، بالحق الابلج والبيان من كل مخرج ، على طريق النهج الذي مضى عليه الصادقون من آبائـه ، فليس يجهل حق هذا العالم الاشقى ولايجحده إلا غوى ولا يصد عنه إلا جـريء علـى الله عـز وجل.." .

هذا النص يحمل كل ما يمكن أن يحيط بمسألة الإمامة : الوجوب العقلي على الله سـبحانه في النص عليه ، منزلته ، وارثته لأبيه بالوصية ، عصمته ، شمولية علمه ، مكانته من الرسـول (ص) حفظ الله له إلى اجل محتم ، مهمته في الأرض بين العبـاد، الإمامـة الناطقـة والإمامـة الصامتة . لقد كان الجدل الذي أحاط بنظرية الإمامة لدى مدرسة أهل البيت يدور حول الوجـوب السمعي للإمامة الذي شغل حيزاً كبيراً من علم الكلام الإسلامي ولا يزال ، لأنه مفصلي في تحديد نظرية الإسلام ونظام الحكم ، يتيح بناء المقياس وإطلاق حكم قيمة على مراحل التاريخ الإسلامي حتى اليوم .

إيجازاً يمكن اختيار مقولتين هامتين تتصلان بنظرية الإمامة كما أثرت عن الإمام جعفـر ابن محمد (الصادق) وذلك استكمالاً لتوضيح الركن الأخير من أركان علم الكـلام الإسـلامي وهما:

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

العصمة والبداء :

هاتان المقولتان نقلتا من مؤلفات هشام بن الحكم كما وردت فيما كتب عنه ، أو ما استخلص من الأفكار التي هي اقرب ما تكون إلى نسق المدرسة الفكري .

ينقل الخياط المعتزلي نصوصاً لهشام بن الحكم من كتاب فضيحة المعتزلة لابن الراوندي الذي يناقش هذه النصوص يقول هشام :

"أن الله ليس يخلو من أن يكون لم يزل عالماً لنفسه كما قالت المعتزلة أو عالماً بعلم قديم كما قالت الزيدية ، وعالماً على الوجه الذي ذهبت إليه "

وفي مناقشة الدكتور النشار لهذا النص يقول :[١٨] .

١- انه يستخدم القديم إشارة إلى الله لا الجسم وهذا يدل دلالة واضحة على أن الله عنده خارج الجسمية العامة المحسوسة التي تملأ الكون .

٢- يقسم الفرق إلى ثلاثة: معتزلة - زيدية - أمامية ، ويبدو أنها الفرق المعتمدة في زمنه ولديه فلا نجد ذكراً لأهل السنة والجماعة والمحدثين ، ولعله لم يرد جدالها وبخاصة أن البعض من هؤلاء سكتوا عن المناقشة لان بعضهم يوافقه في التشبيه والتجسيم (خاصة من مختلف أطراف السنة والجماعة)

٣- دقة العرض للأفكار : يتحدث هشام عن حدوث العلم كما أنكر أن علم الله لذاته هو ذاته حتى يتجنب خطأ المعتزلة الأكبر في إحاطة الذات بالمعلومات ، لان المعلومات متناهية محدودة محصاة محاط بها ، وان قالوا أن معلوماته ومقدرته غير محدودة وغير محصاة شاركت الذات في صفاتها ، ولا تعطي نصوص هشام هذا الحل بصراحة فهو يؤكد أن العلم يحدث من لا كل .." انتهى .

وبعيداً عن اتهامه بالتجسيم والتشبيه اللذين اعتبرهما البعض لازمتان له رغم نفي الشيخ المفيد لذلك عنه بشدّة واضطراب المصادر الناقلة عنه وكونها تتبع أسلوب الاتهام لا البحث العلمي فان هشاماً نقل عن الإمام الصادق (رض) نظريته الذرية المبهرة في الطفرة ونظريته في الكمون ، والنظرية الذرية .

ما هي الطفرة : هي أن يكون الجسم في مكان ثم يصير إلى المكان الثالث من غير أن يمر بالتالي (مذكراً بنظرية دارون في علم الأحياء) أما الكمون فهو تداخل الأجسام (أحد أسس علم الفيزياء) وتداخل الجسمين اللطيفين في حيز واحد ، ويمضي بعضهم إلى اتهامه ومدرسة أهل البيت باقتباسها من الرواقية والثنويه وأنكساغوراس وهي تهمة سنتعرض لها بعد

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

قليل .

النظرية الذرية تتحدث عن أنّ الجزء يتجزأ أبداً إلى ما لا نهاية ولا جزءاً لأوله جزءٌ آخر إلا من جهة المساحة ، فإن لمساحة الجسم آخراً وليس لا جزائه آخر من باب التجزؤ [١٩] وتلك أفكار توصل إليها العلم الحديث في هذا القرن فقط .

ما هو البداء : وقد أستقي التعليل عن الشيخ المفيد في أوائل المقالات ص٥١ .

يقصد به الظهور بعد الخفاء ، وهو كمنزلة النسخ في التشريع فالله تعالى" كل يوم هو في شأن (يمحو ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب) ولا يقصد بذلك الانتقال من عزم إلى عزم أو من حال إلى حال لحصول شيء لم يكن حاصلاً ، ولم يكن الله به عالماً ، كل ذلك لا يجوز إطلاقه على الله ولكن الله يحدد الآجال وقد يجعلها مشروطة ، ويقضي القضاء فيجعله معلقاً ولولا ذلك لما نفع الدعاء : يقول تعالى" لو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات في السماء والأرض" فأصبحت آجالهم مشروطة بعضها غامض وبعضها طاهر فكذلك في الإخفاء والإبداء في عالم التكوين لمصالح وحكم تقصر عنها العقول وتقف عندها الألباب .

يقول الإمام الصادق (رض) ما بدا الله شيء إلا كان في علمه قبل أن يبدو له لأن الله لم يبدُ عن جهل [٢٠] ويبقى قضاء الله معلقاً وحكمه مشروطاً دون أن يمس هذا علمه أو يفيد البداء انتقاله من حال ظن إلى حال يقين ".

هذه النظرية رفضها المعتزلة واعتبرها البعض تهمة لمدرسة أهل البيت الفكرية دون النظر إلى مضمونها في حقيقته ، ذلك أن تفسير قبول الله سبحانه للدعاء لا يمكن تفسيرها إلا من خلال هذه النظرية .

العصمة : قدم هشام بن الحكم تعليلاً جميلاً لهذه المقولة الأساسية لمدرسة أهل البيت وذلك من خلال الزاماته للآخرين كما يلي : -

" إن جميع الذنوب لها أربعة اوجه لا خامس لها : الحرص - الحسد- الغضب - الشهوة وهذه الصفات كلها منفية عن الإمام ، فلا يجوز أن يكون حريصاً على هذه الدنيا وهي تحت خاتمه ، فهو خازن أموال المسلمين فعلام يحرص ، ولا يجوز أن يكون حسوداً لأن الإنسان إنما يحسد من هم فوقه وليس فوقه أحد فكيف يحسد من هم دونه ، ولا يجوز أن يغضب لشيء من أمور الدنيا إلا أن يكون لله عز وجل وقد فرض عليه إقامة حدوده ، ولا يجوز أن يتبع الشهوات ويؤثر الدنيا على الآخرة كما ينظر إلى الدنيا فهل رأيت أحداً ترك وجهاً حسناً لوجه قبيح أو طعاماً طيباً لطعام مر وثوباً ليناً لثوب خشن ، ونعمة دانية باقية لدنيا زائلة فانية "[٢١] .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

على أية حال فان مدرسة أهل البيت تعتبر أول من تكلم عن العصمة ، لا في الإسلام وحسب بل في جميع الديانات ، ذلك أن مسألة العصمة تتصل اتصالاً وثيقاً بنظام الحكم والسياسة إضافة لاتصالها بالدين ، ودائماً هناك في أي دولة رمز معصوم لابد منه : ملكاً كان أو مرشدا روحياً أو مؤسسة برلمانية أو قانوناً أو دستوراً في الدولة الحديثة ، لهذا تعتبر هذه النظرية من إبداع مدرسة أهل البيت الكلامية ولا تسيء إليها مطلقاً كما سعى كثير من الباحثين حين أدلوا بدلائهم قديماً أم حديثاً .

لقد ظهرت بداية في زمن الإمام علي بن أبي طالب بعد خلافه مع القراء بعيد التحكيم في موقعة صفين ، لكنها تطورت كفكرة كلامية في زمن الإمام الصادق وجامعته التي برع فيها الكثيرون وفي مقدمتهم هشام بن الحكم .

أصالة أفكار مدرسة أهل البيت الكلامية :

بقدر ما ساهمت في تأسيس علم الكلام الإسلامي فإن مدرسة أهل البيت أثارت في الجهة المقابلة حملة من الاتهامات وهي تدفع الكلام الإسلامي ليصبح في واجهة بناء الحضارة الإسلامية المزدهرة في القرن الثاني الهجري ، وبهذا الاعتبار احتلت كتب الفرق صدارة الشهرة بين الكتب الأكثر انتشاراً ودراسة ، ومن لم يسمع بالشهرستاني وقد أصبح كتابه في (الملل والنحل)المرجع الفلسفي الأول لدى الباحثين منذ كتابته وحتى اليوم ، ولكن الواقع يتحدث عن اتهامات لأفكار وعقائد مدرسة أهل البيت لم يثبت الكثير منها وقد ضاعت الوثائق موضوع الاتهام أو معظمها كما أشرنا .

أبرز الاتهامات تتعلق بنظرية الإمامة لدى مدرسة أهل البيت ، وما يتعلق بها من المهدية وعودة الإمام المهدي ليملأ الأرض عدلاً بعدما ملئت جوراً ، نقول اتهامات لأنها لم تكن جدلاً حول صحتها فحسب بل انصبت على مصادرها باعتبارها لم تكن تتصل في رأيهم بنبع إسلامي وإنما اقتبست من مصادر غنوصية أو هرمسية أو فلسفية يونانية أو يهودية أو مسيحية .

ما هي الغنوصة :

الغنوص وهو ترجمة للكلمة اللاتينية Genostic وتعني العرفان بمعناه الواسع ، كلمة العرفان تعبير جميل عن فلسفة الإلهيات والبحث عن طرائق معرفة الله سبحانه ، ويصر الباحثون المحدثون وخاصة المستشرقون وتلامذتهم من العرب على إلصاقها بمدرسة أهل البيت في كلامهم العرفاني الذي انتقل إلى المتصوفة إضافة إلى نظرية الإمامة .تتلخص الغنوصية وهي مجموعة هائلة من الدراسات المكتشفة عن تراث قديم من المعرفة الإنسانية – بأنها نزعة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

دينية صوفية شعارها أن بداية الكمال هي معرفة غنوص الإنسان ، أما معرفة الله فهي الغاية والنهاية [٢٢] يبدأ العرفان متدرجاً من الإنسان إلى عرفان الله سبحانه وصولاً إلى النجاة والخلاص لان الله هو الإنسان ، وهكذا فان أساس الغنوص هو معرفة الإنسان بنفسه بوصفه إلهاً وهذه المعرفة تؤدي إلى نجاة الإنسان . تتسم هذه النظرية بثلاث خصائص رئيسية :

١- الخلاص أو النجاة بوصفه معرفة الإنسان لذاته متحداً بالألوهية اتحاداً جوهرياً .

٢- الثنوية أي ثنائية العالم بين الخير والشر ، النور والظلمة ، أما في الإنسان فهي ثنائية الروح والجسد .

٣- تجلي الألوهية من خلال صاحب وحي (نبياً رسولاً) ومن خلال مخلص للبشرية وتتمثل المعاني الأساسية للغنوصية بما يلي :

١- **الثنوية** : وهي الروح والمادة وتجري أحداث الكون حسب ما بينها من تعارض .

٢- **الصانع** : وهو يعني الخالق فهو صانع العالم .

٣- **العرفان** : ويتم من خلال الجماعة والإلهام وليس بالتعلم ، ومعرفة الحقائق الباطنية والتمييز بين الخير والشر .

٤- **الخلاص** : وهو ما تمخض عنه الصراع بين النور والظلمة في العالم ولابد للإنسان من خلاص بالنجاة من العالم المادي الشرير واللوذ بعلم آخر يتحرر فيه الإنسان من ظلمة المادة وهو ما تستطيعه الصفوة من البشر .

كما نرى فإنها مذهب لم يكن له مؤلف ، نزعته قائمة بذاتها فيها فهم للعالم ، دين عالمي جزء من ثقافة البشرية وخلاصة تجارب العارفين تمت من خلال تجارب شخصية عرفانية صيغت على شكل فلسفة اكتشفت وثائقها في مناطق متعددة منها مصر مؤخراً، ويعتبر من أهم شخصياتها سيمون الساحر.) .

ما هي الهرمسية : تنسب إلى هرمس المثلث بالحكمة أو المثلث بالنبوة والحكمة والملك [٢٣] وهو أصلاً اسم لأحد آلهة اليونان ، وقد طابق اليهود بينه وبين موسى ، والهرمسية كعلوم وفلسفة دينية ترجع إلى مجموعة من الكتب والرسائل تنسب إلى هرمس الذي يقدم أحيانا على انه الإله أو الناطق باسم الإله ولهذا اعتبرت المؤلفات بمثابة الوحي الإلهي ، وهي ترجع حسب رأي الفيلسوف الفرنسي (مينستوجيير) إلى القرنين الثاني والثالث للميلاد وأنها كتبت في الإسكندرية من قبل أساتذة يونانيين ، وتستمد من الفيثاغورية الجديدة والافلاطونية المحدثة وفيها اقتباسات فارسية زرادشتية ومجوسية ، وقد وجدت فيها علوم الكيمياء والتنجيم والسحر .. الخ

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

في الجانب الإلهي للهرمسية نقطتان رئيستان :

١- هناك إلهين اثنين أحدهما مسخر للآخر:

الأول: الإله المتعالي الذي لا تدركه العقول ولا الأبصار ، ويعرف بالسلب بمعنى انه منزه عن التشبيه ولا يهتم بشؤون الكون ، ولا يدخل في علمه أي شيء منه لأن الكون وما فيه محفوف بالنقص لذلك كان من غير الممكن التوصل إلى معرفته عن طريق تأمل الكون بالحواس

الثاني : الإله الخالق الصانع هو الذي خلق العالم ولهذا فهو يتجلى فيه ويمكن إدراكه بتأمل الكون ونظامه ، أما الطريق إلى معرفة الله فهي النفس لأنها جزء من الإله : إنها تتمكن من معرفته عندما تتمكن من الاتصال به ، أما العقل فهو يستمد مدركاته من الأجسام والأجسام لا يمكن أن تؤدي بأية صورة إلى معرفة الله ، ويتم تخليص النفس بالمعرفة والتطهر والتخلص من المادة والفناء في الله ، وذلك عن طريقين ، إما الانكفاء أو الانتشار وكلاهما سعي للاتحاد بالله سبحانه ، إما عن طريق الاتحاد والفناء في الذات بالانتشار أو عن طريق الحلول بالانكفاء.

وتتميز الهرمسية عن الغنوصية بشيء واحد فقط هو قولها بالأصل السماوي الإلهي للنفس أي أن الله خلق للإنسان على صورته ٠(كما ورد في أحد نصوص العهد القديم).

أن ابرز سمات الفكر الهرمسي في رأي (فيستوجيير) هو أنه فكر لم يعد فيه الفصل بين العلم والدين كما كان قائماً من قبل ، ذلك انه لم يعد من الممكن الطموح إلى الحصول على المعرفة أية معرفة إلا من عند إله أو عند نبي يوحي إليه ويقدم المعرفة للناس وحياً لا بالبرهان وهكذا فلمعرفة علم الكيمياء (مثلاً) لابد من أن يجد الإنسان الله أولاً ولكي يجد الله لابد له من الرجوع إلى نفسه وإسكات شهواته وبمعرفة الله يعرف الأصباغ الرفيعة التي تحول المعادن الخسيسة إلى ذهب ، إن من يتصل بالله يغرف من نفس النبع الذي تنبع فيه كل حقيقة" .

وبعد.... :

"ليس من شك في حصول تقاطعات بين الإسلام في جانبه الإلهي وبين تراث الإنسانية السابقة عليه ، فهو لم يأت في فراغ وإنما جاء مكملاً ومصححاً في آن لما سبق ، ولكنه ظل دين التوحيد المطلق في مقابل الثنائيات التي لم تستطع المدارس السابقة أن تتخلص منها ، حتى وهو يطرح جدلية الخير والشر المتمثل بالشيطان ، أما مدرسة أهل البيت في جانبها العرفاني الذي تمثل بداية في فكر الإمام علي (رض) في الزهد ونبذ الدنيا ، والذي كان النبع الذي استقى منه المتصوفة المسلمون فقد ظل متميزاً بأنه حالة إسلامية محضة ولم يخرج عن الشرع الإسلامي ، وفي فكر الأئمة كلهم احتلت قيم العمل من أجل الدنيا والسعادة فيها جانباً لا يستطيع أحد نكرانه ،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لم يكن لدى الأئمة جانبهم السري من العلم حتى ونحن نأخذ ما قيل عن الجفر بعين الاعتبار ، ولم يجرؤ باحث على اتهام الإمامين علي والصادق (رض) بالاقتباس من تلك الأذكار التي عرضنا ، رغم ما اثر عنهما القول بعلم الأولين والآخرين.

من هذا المجال فان الإمامين سبقا عصر الترجمة الإسلامي ، وكان علم مدرستهما مشتقا من علم رسول الله (ص) ، والواقع أن المهتمين وقد أحجموا عن مناقشة تقاطعات الأفكار القديمة في نصوص القرآن والحديث النبوي ، فقد صبوا اتهامهم لمدرسة أهل البيت على مسألتي الإمامة والمهدية ومستلزماتهما باعتبارها أفكار خارجة عن الإسلام وأنها جاءت تزيدات من قبل تلاميذ الائمة أو الغلاة ، هذا من جانب المتكلمين المسلمين ، أما المستشرقون فقد اتهموا الإسلام كله بطرائق ناقشها الباحثون المسلمون وفندوها باعتبارها اتهامات لاترقى إلى مستوى العلم والإنصاف العلمي ، ولكنهم (القدماء والمحدثون منهم من الأطراف المناوئة للمدرسة) أغفلوا جانباً هاماً وهو أن فكر مدرسة أهل البيت مسنود في كل جوانبه وخاصة علم الكلام منه بأحاديث نبوية وردت في كتب الحديث جميعاً ، ولا مجال لإيرادها في هذه العجالة لأنها متاحة في آلاف الكتب والوثائق لكن هؤلاء الباحثين المسلمين – وبطريقة تثير العجب – قبلوا ما قيل عن مدرسة أهل البيت من قبل المستشرقين في كتبهم بمختلف نزعاتهم من (غولد تسيهر وهوفمان) وصولاً إلى(فان فلوتين دوزي وهنري كوربان)، وهذا ما نجده على سبيل المثال في كتابات باحث كبير كالمرحوم الشيخ (محمد أبو زهرة)، وهو أكثر الباحثين كتابة عن تلك المرحلة ورموزها ، إضافة إلى (علي سامي النشار ، احمد صبحي ، محمد عابد الجابري ، احمد أمين وآخرون ..)

لقد شكلت مدرسة أهل البيت حالة أصيلة في علم الكلام الإسلامي ، وضعت أسسه على قواعد من القرآن والسنة النبوية بهدف التوضيح والإجابة عن الأسئلة التي يطرحها الفكر وتطور الحياة ومستجداتها بما لا يمكن تجاوزه أو القفز عليه ، لهذا اعتبر كل ماجاء في التيارات الموازية استجابات لتحديات تلك المدرسة وإضافات أغنت الفكر الإنساني برمته ، ظلت مدرسة أهل بيت النبي (ص) بهذا الاعتبار تياراً متميزاً نهل من الإسلام وفسره ويشكل الريادة في التدوين وعلم الكلام معاً ودفع باتجاه ازدهار ونضج الحضارة الإسلامية .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

هوامش :

(١) راجع : نشأة الفكر الفلسفي في الاسلام ، م.س . نظرية الامامة م.س ، الامـــام الصـــادق ، حياته وعصره واراؤه الفقهية م.س .

(٢) القاضي عبد الجبار الهمذاني ، طبقات المعتزلة ، تحقيق علي سامي النشار ، دار المطبوعات الجامعية القاهرة ، ١٩٧٢ ، ص٧.

(٣) جلال محمد موسى نشأة الاشعرية وتطورها ، دار الكتاب اللبناني بيروت ١٩٨٢، ص١٢١.

(٤) الشهرستاني ، محمد بن عبد الكريم ٤٧٩- ٥٤٨، الملل والنحل ، تحقيق محمد سعيد كيلاني، دار المعرفة بيروت ص١٥.

(٥) ن.م ص١٦.

(٦) محمد عابد الجابري ، تكوين العقل العربي ، مركز دراسات الوحدة العربية ، ط٣، بـــيروت ص١٢٧.

(٧) محسن الامين ، في رحاب أئمة أهل البيت ، ج٤ .ص.

(٨) البغدادي ، عبد القادر بن طاهر توفى ٤٢٩هـــ، الفرق بين الفرق ، منشـــورات دار الآفـــاق الجديدة ، بيروت ص٢٠٠.

(٩) أحمد أمين ، هارون الرشيد ، دار الهلال ، ٣، ١٩٥١ ص.

(١٠) ابو القاسم الخوئي ، معجم رجال الحديث وطبقـــات الـــرواة ، ج١٩، ط٣، بـــيروت ، دار الزهراء ١٩٨٣، ص٢٧١.

(١١) محمد سعيد العرفي ، المقالات الدينية ١٩٨٣، دمشق ، ص١١.

(١٢) فخر الدين الرازي ، محصل افكار المتقدمين والمتأخرين من العلماء والمتكلمين ، راجعـــه طه سعد ، دار الكتاب العربي بيروت ١٩٨٢.

(١٣) الامام جعفر الصادق في نظر علماء الغرب ، ترجمة نور الدين آل علي ، دار الفـــاضل ، دمشق ١٩٩٥، ص١٣٢.

(١٤) تكوين العقل العربي م.س ص١٧٥-١٨٣.

(١٥) نهج البلاغة ، تحقيق الشيخ عزيز الله عطاردي ، ط٢، مؤسسة نهج البلاغة ، ص٧.

(١٦) طبقات المعتزلة ، م.س ص١٥.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

(١٧) أحمد صبحي ، نظرية الامامة لدى الشيعة الاثنـــى عشـــرية ، دار المعـــارف القـــاهرة ، ص٣٦٧.

(١٨) علي سامي النشار ، نشأة الفكر الفلسفي في الاسلام ، دار المعارف ١٩٧٧ ، ص١٦٩.

(١٩) م.س ص١٨٠.

(٢٠) نظرية الامامة لدى الشيعة ، م.س . عن محمد حسين آل كاشف الغطاء " الدين والاســـلام " ص١٧٣.

(٢١) نشأة الفكر الفلسفي عن عقيدة الشيعة للمستشرق دونالدسون ص١٠٦.

(٢٢) عبد الرحمن بدوي ، الموسوعة الفلسفية ، ج ١ ، المؤسسة العربية للدراســـات والنشـــر ، بيروت ١٩٨٤.

(٢٣) تكوين العقل العربي م.س ص١٧٥-١٨٣.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

القسم الثاني

النفي في دراسة فكر الإمام الصادق (ع)

١- التيار العلماني التغريبي : محمد عابد الجابري نموذجاً .

٢- التيار السلفي - المصري : الأزهر نموذجا .

٣- التيارات الاستشراقية .

٤- التيار الفلسفي - الاسترادادي المصري : علي سامي النشار - أحمد محمد صبحي

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

التيار التغريبي العلماني العربي ودراسة فكر الإمام الصادق "محمد عابد الجابري نموذجا "

تمهيد :

اكتسب هذا التيار سماته الرئيسية من افتراقه عن التيارات البحثية العربية الأخرى بأنه يتعامل مع التراث العربي من وجهة نظر الثقافة الغربية ومقولاتها الفلسفية مباشرة ، ولهذا يفترق عن الاستشراق وامتداداته العربية من ناحية الوسائل المستخدمة في تقييم التراث الإسلامي ، فالاستشراق يتبع طريقة النفي المطلق للإسلام بمعنى افتراضه فساد النظرية قبل الشروع في دراستها ، لتجيء الدراسة مجرد بحث عن مكامن الطعن فيها وتجاهل الإيجابيات والحقائق ، بينما يدعي التغريبيون العلمانيون انهم يضعون المنهج العقلي أساساً لبحوثهم ، ليكون العقل والتراث الحضاري الأوربي المقياس الوحيد ، وهكذا تبدو تلك البحوث كأنما هي دراسات مقارنة مع انحياز مطلق لكل مفرزات الفلسفة الأوربية دون تحفظ .

من خلال تحديداته لطبيعة العقل الأوربي ومقارنته بالعقل العربي ، ينطلق الباحث "محمد عابد الجابري "من تحديد مفترض لثوابت كل منهما ، فهو يحدد أن ثوابت العقل الأوربي اثنان هما :

أولا : اعتبار العلاقة بين العقل والطبيعة علاقة مباشرة فهي وهوعلى صعيد الوجود أي على أرضية واحدة .

وثانيهما : الإيمان بقدرة العقل على تفسير الطبيعة والكشف عن أسرارها وهو ما يطلق عليه صعيد المعرفة .

ثم ينطلق مؤكداً أن هذا العقل لا يحتوي ثابتاً ثالثاً يتعلق بالألوهية ، لأن الله هو الطبيعة [1] فإله أفلاطون على سبيل المثال هو الصانع المرتبط بما صنع وهو الطبيعة ، أما إله أرسطو فهو المحرك الأول ، أي أنه مجرد إله منطقي لتفسير الحركة في الكون ، الله في العقل الأوربي أذن وسيلة للتفسير وليس ثابتاً هدفاً في تكوين بنية هذا العقل .*

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

العقل العربي يحتوي ثوابت ثلاثة بالترتيب التالي : الله – الإنسان – الطبيعة ، ويقول : إذا أردنا تكثيف هذه العلاقة حول قطبين اثنين كما فعلنا للفكر الأوربي كانا : الله والإنسان وتسجيل غياب الطبيعة النفسي ، لأن الطبيعة تأخذ دور الوسيط المعين على اكتشاف الله فتبين حقيقته ، فالهدف من تأمل الطبيعة هو الوصول إلى معرفة الله ، وجودا وتأثيرا وليس أكثر [٢] وحتى يكون أكثر تحديدا يطلق حكم القيمة الحاسم التالي قائلا : أن العقل الأوروبي يرتبط بالمعرفة ، أما العقل العربي فيرتبط أساسا بالسلوك والأخلاق ، ويفسر ذلك كما يلي :

برغم اتجاه العقل اليوناني أخلاقيا ، لكن الفرق كبير بين الاتجاه من المعرفة إلى الأخلاق والاتجاه من الأخلاق إلى المعرفة : أي التمييز في موضوعات المعرفة بين الحسن والقبح بين الخير والشر باعتبار أن مهمة العقل ووظيفته بل وعلاقة وجوده هي حمل صاحبه على السلوك الحسن ومنعه من ايتان الفعل القبيح .." ويعلل استنتاجه من تفسير لفظة عقل نفسها في اللغة العربية .. بأن هذا التفسير ينطلق من السلوك البشري وإليه ، لا إلى الطبيعة وظواهرها [٣] ، فالعقل العربي بهذا الاعتبار عند الجابري تحكمه النظرة المعيارية إلى الأشياء ، بمعنى أن التفكير يتجه في بحثه للأشياء عن مكانها وموقعها في منظومة القيم التي يتخذها ذلك التفكير مرجعا ومرتكزا ، في مقابل النظرة الموضوعية التي تبحث في الأشياء عن مكوناتها الذاتية وتحاول الكشف عما هو جوهري فيها ، فالنظرة المعيارية نظرة اختزالية تختصر الشيء في قيمته وبالتالي في المعنى الذي يضيفه عليه الشخص (بما هو نتاج مجتمع وثقافة) صاحب تلك النظرة ، أما النظرة الموضوعية فهي نظرة تحليلية تركيبية تحلل الشيء إلى عناصره الأساسية لتعيد بناءه بشكل يبرز ما هو جوهري فيه .."[٤] .

هذا الرأي كما نرى يقود ببساطة إلى النزعة العرقية في تصنيف البشر وعقولهم ، رغم أن الباحث يحاول أن ينفيها عن نفسه بشدة في مفاصل بحثه ، وهو أيضا يحكم على العقل العربي عموما باللاعقل ، أو بأنه أدنى مرتبة من أنه يتمكن من الوصول إلى إنجازات علمية ومعرفية بارزة كما استطاع ذلك الأوروبيون مما مكنهم من السيادة على العالم .

وحتى نكون اكثر بساطة وتحديدا فإن الباحث الجابري – وهو ينطلق إلى هدف نبيل هو تقدم الأمة العربية من خلال معرفة أسباب تخلفها – يتهم العقل العربي بمسؤولية انحدار الكيان العربي الحالي ، متحللا مكوناته ، ومقارنا بما هو أرقى منه(العقل الأوربي) ومطالبا بالتغيير ، هذا التغيير الذي يتجه إلى مصدر وحيد هو التراث العربي الإسلامي ، والثقافة الناتجة عنه باعتبار أن العقل ينتمي إليها (أي الثقافة) ،لأن العقل العربي في رأيه هو جملة المبادئ والقواعد التي تقدمها الثقافة العربية للمنتمين إليها كأساس لاكتساب المعرفة ، والتي تفرض عليهم كنظام معرفي [٥] وهو في هذا المجال لا يتوانى عن تبني آراء شعوبية صريحة في توصيف العرب

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والعقل العربي حين ينقل رأي الجاحظ في البيـــان والتبيـــن (ج ٣ ص٤٩-٥٠) والتـــي يقـــول فيـــــــــه " أن كلام الفرس يأتي عن طول فكرة واجتهاد وخلوة ومشاورة ومعاونـــة وتفكـــر ودراسة .

أما كل شيء عند العرب فهو بديهة وارتجال كأنه الهام وليس هناك معاناة ولا مكـــابدة ولا إحالة فكر ولا استعانة وإنما همه أن يصرف همه إلى الكلام وإلى رجز يوم الخصام .." ويشـــفع هذا الرأي للجاحظ برأي الشهرستاني الذي يقول " العرب يميلون إلى تقريـــر خـــواص الأشـــياء والحكم بأحكام الماهيات والحقائق واستعمال الأمور الروحانية ، اما العجم فيميلون إلـــى تقريـــر خواص الأشياء والحكم بأحكام ميلهم إلى تقرير طبائع الأشياء والحكم بأحكام الكيفيات والكميـــات واستعمال الأمور الجسمانية " .

العقل العربي عند الجابري أذن " نظرته ذاتية لأنها لا تعتمد على الاستدلال والبرهان بـــل على الحدس والوجدان .."[٦] .

وحتى لا يتهم بالتعسف في استخدام حكم قيمة شديد القسوة كهذا يتابع الباحث هجومه على التراث الإسلامي في مراحل التاريخ المختلفة متجنبا الهجوم على الإيديولوجيـــا ذاتـــها حتـــى لا يعرض نفسه للاتهام ، عاكساً المسألة بسحبه الحاضر نحو الماضي ومعتبراً أن العقـــل العربـــي أوقف إنتاج الفكر منذ ألف ومئتي سنة على الأغلب وان الأمة أحالت هذا العقـــل علـــى التقـــاعد واضعةً الإلهام والكشف بديلاً عن التجريب والبحث ، ذلك أن الزمن الثقـــافي المكـــون للعقـــل لا يخضع لمقاييس الوقت والتوقيت الطبيعي والاجتماعي والسياسي ، فزمن الثقافة العربية هو زمـــن العقل العربي ، مادام أبطال هذه الثقافة خالدون يستمر تأثيرهم الثقافي أبداً ، من هـــذه المقومـــات وعلى هذه القاعدة يبني تحليله الهجومي على فكر مدرسة أهل البيت الممثلة بالإمام جعفر الصادق (رض) وهو موضوع بحثنا هذا .

تحليل المنهج في دراسة التشيع :

ينطلق ممثل التيار التغريبي موضحاً أفكاره في ثلاث قنوات رئيسية :

أولا : تحميل التراث الإسلامي المشكل للعقل العربي مسؤولية تراجـــع الأمـــة العربيـــة المستمر ، ولكن ليس كل هذا التراث ، بل تنحصر المسؤولية في التيارات التي تمكنت من الهيمنة وإقالة العقل وإحلال الكشف العرفاني بديلاً .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ثانيا: الجانب العرفاني من الفكر الإسلامي والذي يشكل جزءاً هاماً من الثقافة الإسلامية والذي هو وليد مدرسة أهل البيت والتشيّع ، يحمل على كاهله مهمة تدمير الأسس الصحيحة لبناء العقل العربي بما ينسجم مع إنتاج المعرفة الفردية للتقدم .

ثالثا : يكون الالتزام بالتراث الإسلامي برمته بما في ذلك الأيديولوجيا الإسلامية وفي قمتها فكرة الألوهة أبرز مسببات أو علل تدمير الابتكار والإبداع العلمي في العقل العربي ، ويعتبر الالتزام بالأفراد وإنتاجهم الفكري ، وجمود العقل المشرقي العربي عند ذاك الإنتاج باعتباره نهاية للاجتهاد وليس بداية له (وقد مضى على رحيلهم قرون عديدة) علة توقف حركة الفكر العربي في الزمن الذي عاش فيه أولئك الأفراد ، وهذا يعني توقف لحركة الزمن العربي ودورانه في حلقة لا يستطيع منها فكاكاً .

هذه القنوات الثلاث يمكن لها أن تلخص الخطوط العامة لأفكار السيد الجابري في بحثه ضمن التراث الإسلامي عن أسباب جمود وتخلف العقل العربي المؤدي إلى تخلف الأمة ووقوعها تحت سيطرة الغرب الأوروبي . وهو في هذا السياق يقدم إيماءاته حول أن إمكانية تقدم الأمة مرتبط بالانفكاك عن تراثها – رغم مديحه لجوانب من هذا التراث وخاصة المعتزلة – وأتباع الطريق الذي سارت عليه الحضارة الغربية التي أنتجت ثقافة ساهمت في تشكيل العقل المبدع ، بما في ذلك تهميش فكرة الألوهة والدين والتراث والنظر المستمر نحو الأمام ، في زمن مفتوح ليس له آفاق .

" ذلك أن مشروع النهضة العربية الحديثة قام ومازال يريد أن يقوم على بعث ما قد مضى لا على القطيعة معه ، فالإسلام لم يقم من اجل نفي الماضي والقطيعة معه بل قام من اجل التصحيح من اجل رد الناس إلى دين أبيهم إبراهيم ، فهناك ظاهرة الاجترار الثقافي العربي في العصور المتعاقبة ، والتداخل بين العصور الثقافية في الفكر العربي منذ الجاهلية إلى اليوم ، يعيشها المثقف كزمن راكد يشكل جزءاً أساسياً وجوهرياً من هويته الثقافية وشخصيته الحضارية حضور القديم مع الجديد كمنافس ومكبل ، يجب أن تطرح مشكلة التقدم ليس في إطار الماضي بل في إطار المستقبل ، أي العمل على تحقيق قطيعه ابستمولوجية مع الماضي لتدشين زمن ثقافي جديد على أسس جديدة .."[٧] ، ثم يتابع مؤكداً بجزم :" أقرر أن الحركة في الثقافة العربية كانت وما تزال حركة اعتماد لا حركة نقله ، وبالتالي فزمنها يعدها للسكون لا للحركة على الرغم من كل حركتها، والدليل أن الفكر الشيعي فقهاً وكلاماً وسياسة اكتمل مع جعفر الصادق.."[٨]

والواقع أن الإشارة إلى الإمام الصادق (رض) واكتمال فكر مدرسة أهل البيت معه لم يأت لمجرد الإشارة إلى جمود هذا الفكر منذ العام ١٤٨ هـ وحسب بل ويهدف بالجوهر إلى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الانتقال مباشرة لتحديد أن العرفان الشيعي والباطنية الشيعية " وقد كانا من أقوى العوامل التي دفعت بالمأمون إلى الاستنجاد بأرسطو في إطار استراتيجية عامة كانت تهدف إلى تنصيب العقل – العقل الكوني – حكماً في النزاعات الأيديولوجية والدينية ، لأن الصراع مع الشيعة كان صراعاً إيديولوجياً ، الأيديولوجيا من اجل السياسة وليس بالعكس .."[٩] هذان العاملان ساهما في تدمير المنهج العقلي أو بطريقة أوضح أنهما دفعا السلطة لتنصيب العقل ليكون في مواجهة اللاعقل المتمثل في العرفان الشيعي الذي يهدد الدولة .والباحث هنا ينفي عن المعارضة الشيعية وإنتاجها الفكري أية سمات للعقلانية ، بل إنها في رأيه تقف على النقيض مع أر سطو العقلاني الذي تم الاستنجاد بفكره وترجمته إلى اللغة العربية ليقف في مواجهة التشيّع ، ثم يمضي استطراداً إلى إطلاق حكم قيمة كالتالي" وجد الشيعة في الهرمسية المعين الذي لا ينضب الذي استمدوا منه فلسفتهم .. كانوا أول من تهرمس في الإسلام ...والباحث يستدرك هنا بتخصيصه التهرمس لغلاة الشيعة الذين وظفوا فكرة المعلم التي تعادل هنا الوحي أو الإمام مترافقة مع فكرة التطهير وفكرة الإله المتعالي ، إضافة إلى الجوهر الكامن في الإمام علي أو الرسول محمد أو سلمان الفارسي ، متجهين إلى الهدف الرئيسي وهو اتصال الإمام بالله وتلقي العلم منه [٦] .

لكنه يضيف استدراكاً آخر أيضا ، في محاولة جديدة قديمة ، لإبعاد الإمام الصادق عن كون تلك الأفكار تابعة منه ، موضحاً أن الإمام الصادق كان " يبدي تضايقه من الطريقة التي يتحدث بها الغلاة عن الأئمة ويعارض الثورة المسلحة ويسالم العباسيين وأهل السنة مكتفيا بهدف عام هو السيطرة الثقافية وصولا إلى السيطرة السياسية ...".

الصادق أذن في نظره هو الشخصية العلمية التي اشتغلت بتنظيم المذهب ورفع الشبهات عنه ، لهذا قام بطرد ابرز مشايعيه من الغلاة المعروفين وهو أبو الخطاب الذي ادعى علم الإمام بالغيب وحلول الله فيه ، ولكن الصادق إلى جانب ذلك أصر على أن الأئمة يرثون النبوة ويستأثرون بفهم حقيقة الدين ويعلمون باطن القرآن .. وفوق هذا وذاك فان الإمام الصادق لم يمس العرفان الشيعي بل انه ظل مصدرا لفلسفة العرفان وما عزف (بالتصوف) في الإسلام في عصره ، مثابراً على تأييد التراث الضخم المأثور عن الإمام علي والمترسخ في تيار العرفان الإسلامي بدءاً من حسن البصري وصولاً إليه باعتباره سيد العرفاء في عصره .

ولكن ما هو العرفان وقد اصبح مرتبطاً جذرياً بمدرسة أهل البيت والإمام الصادق تحديداً ؟ هو في اللغة مصدر عرف فهو والمعرفة بمعنى واحد [١١] هذه المعرفة التي يصنفها ذو النون المصري بتقسيمها كما يلي :

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

" الأول معرفة التوحيد وهي خاصة بعامة المؤمنين المخلصين ، والثاني معرفة الحجة والبيان وتلك خاصة بالحكماء والبلغاء والعلماء المخلصين ، والثالث معرفة صفات الوحدانية وتلك خاصة بأهل ولاية الله المخلصين الذين يشاهدون الله بقلوبهم حتى يظهر الحق لهم ما لم يظهر لأحد من العالمين "

كما رأى الجابري فالعرفان يستمد من القرآن الكريم منبعه من خلال آيات تحدثت عن اليقين وخاصة آية "إن هذا لهو حق اليقين ".الواقعة(٩٥) التي تحدد أصحاب المعارف ، ويتميز العرفان بأنه يتميز عن البرهان والاستدلال بالكشف والإشراق الذي لا يحتاج لهذا البرهان ، لكن المسألة الجذرية التي تدور حولها أفكار الجابري تنصب دائما باتجاه وصل العرفان الإسلامي بجذور هرمسية قديمة ، وهو في هذا المجال ينصب الفيلسوف اليوناني أرسطو في الجانب الآخر النقيض للهرمسية والعرفان معاً موضعاً إياه مصدراً للاستدلال أو البرهان العقلي في الفلسفة الإنسانية [١٢] لهذا يعقد مقارنات واسعة للنصوص في الجانبين الإسلامي أو الهرمسي في سعيه لتأكيد وراثة العرفان الإسلامي للهرمسية ، باعتبار هذا العرفان ليس منهجاً فكرياً وحسب بل موقف نفسي وفكري ووجودي من العالم يرفض الواقع الذي يعيش فيه العرفاني كنفس مقيدة بالبدن ، أو فردية مؤطرة في مجتمع ليس فيه إلا ما ينغص ويكدر .."

العارف يطمح إلى تلقي المعرفة وجواب أسئلته مباشرة مع القوى العليا التي هو مشدود إليها ويسعى للالتحاق بها والخلاص من جسده الفاني والرجوع إلى موطنه الأصلي ، وتلك نزعة فردية أرستقراطية خاصة بالصفوة كما تبرزها الوقائع في النصوص القديمة والإسلامية ، بل أن العارف يقوم بتوظيف الدين والمعارف الدينية للدفع بالموقف العرفاني إلى أقصى مداه ، ويبقى الهدف النهائي هو الخلاص ، تلك الحاجة التي ولدها في الفرد شعوره بالوحدة والعزلة وهكذا يكون الموقف العرفاني كما يقدمه الجابري هو موقف هروب من عالم الواقع إلى عالم العقل المستقيل) كلما اشتدت وطأة الواقع على الفرد الذي لا يعرف كيف يتجاوز فرديته ويجعل من قضيته ، الشخصية قضية جماعية وان لزم الأمر قضية إنسانية [١٣] .العرفان بالنتيجة هو إيديولوجيا أخروية وليست لهذه الدنيا ، وهو كله نتاج الفلسفة الهرمسية .

على هذه الأرضية يقرر انه قد ثبت في الفكر الشيعي مقولة أن الولاية هي باطن النبوة ، أي أن الولاية عندهم تمثل الباطن بينما تمثل النبوة الظاهر ، والتي جهد الشيعة من اجل إعطاء قالب إسلامي للموروث العرفاني السابق على الإسلام والهرمسي منه بصفة خاصة [١٤] .وفي هذه التربة أيضا بزغت فكرة الإمامة وخلافة الرسول والتي أدت إلى اختلاف المسلمين بين سنه

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وشيعة .

في معالجته لهذه المسألة المفصلية في العقيدة الإسلامية وبعد أن يقدم حجج الطرفين في القاعدة التي يستند إليها لتبرير مواقفهم وخاصة حديث الإمام جعفر الصادق (رض) ** ورأيه" إن العلم الذي انزل على آدم لم يرفع ، وما مات عالم إلا وقد ورث علمه ، وان الولاية والإمامة ركن من أركان الدين لا يجوز للرسول عليه السلام إغفاله وإهماله ولا تفويضه للعامة وإرساله " ينطلق بعدها إلى تقرير بالغ الأهمية قائلا : "أن الشيعة عملوا على تأسيس مذهبهم على الصورة التي تجعل الإمامة بديلا عن الأصلين العقليين الذين يعتمدهما أهل السنة: الإجماع والقياس "[١٥].

وكما نرى فهو ينحو إلى توصيف نظرية الإمامة في مواجهة العقل المتمثل بالإجماع والقياس معا ، منحازا دائما إلى ما يعتقده عقلا في حركة الفكر الإسلامي الخلافي حول هذه المسألة ، ومع ذلك فهو يعرض وجهة نظر الشيعة في رفض هذين الأصلين من خلال كاتب شيعي إسماعيلي قديم هو القاضي النعمان في كتابه (اختلاف أصول المذاهب) ، وجاء الأهم فيما عرضه من آراء القاضي النعماني هو ما يتعلق باستعمال العقل في أمور الدين ، وكعهده دائما فان الجابري يقود النهوض باتجاه وحيد هو رفض الشيعة لاستخدام العقل قائلا " ثم يعترض القاضي النعماني على هؤلاء القائلين بالنظر وحجة العقل اعتراضا جدليا سفسطائيا قائلا : ما قولكم في من نظر مثلكم واستدل بحجة عقله قبلكم فخالفكم فيما توصلتم إليه انتم بالنظر وحجة العقل .."[١٦]

ليصل إلى نتيجة مفادها : إن الشيعة يعتقدون أن العلم عند الإمام ، ولابد من سؤاله (أي الإمام) لان الكتاب الكريم ما فرط بشيء ، فليس هناك نقص في الكتاب ، إنما هناك جهل من الناس ، مقررا بالتالي أن وجود الإمام يلغي استعمال الناس لعقولهم في النظر في القرآن ، وتلك هي وجهة نظر الشيعة الإمامية [١٧] .

ويقرر الجابري : أن مهمة الإمام الصادق كانت أن يكسب النظرية السياسية للتشيع في عهد الإمام علي بن أبي طالب (رض) أبعادا دينية نظرية في جهده للعمل على السيطرة الثقافية والأيديولوجية على العالم الإسلامي ، وهو وتلامذته كما يقول الجابري قاموا بالتنظير للقضية الشيعية أو قضية الإمامة أساسا وبسبب انقسام تلاميذه إلى مجموعتين ، إحداهما التزمت بإسماعيل ابنه ومن بعد – بمحمد ابن إسماعيل ، مما أدى إلى ظهور الإسماعيلية ، بدا كأنما اتحدت المجموعتان في التأليف في (المعرفة) وهو العلم الخاص بالأئمة أو التي تؤسس علم الأئمة (وأعني المعرفة بالمعنى العرفاني الغنوصي للكلمة) والذين يوحدهم أخذهم من الموروث

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

العرفاني (الهرمسي) " ويكفي أن يتصفح المرء ما يروي عن الإمام الصادق من أحـــاديث ومـــا ينسب إليه من أقوال حتى يرى الطابع الهرمسي فيها واضحاً وضوحه فـــي الأدبيـــات العقائديـــة الشيعية اللاحقة والإسماعيلية فيها خاصة ".

ويستطرد الجابري موضحاً مهمة هشام بن الحكيم تلميذ الإمام الصادق الأقرب قائلا" لقـــد نقل عنه مؤرخو الفرق آراء ونظريات ذات طابع هرمسي واضـــح كمـــا أشـــار بعضـــهم إلـــى تأثـــــــــــره بالديصانية الفرقة الغنوصية التي تنسب إلى ديصان أو برديصان الذي ظهر فـــي القرن الثالث الميلادي بمذهب عرفاني كان عبارة عن أقسام افلاطونيـــة وفيثاغوريـــة ورواقيـــة وبالتالي هرمسية في مجمل فلسفتها الانتقائية ، إلى جانب ذلك كله ما هـــو معـــروف مـــن رواج الموروث الهرمسي في حاشية جعفر الصادق نفسه الذي ينسب إليه انه كان على علـــم بالكيميـــاء وعلوم الأسرار وان جابر بن حيان تتلمذ عليه .." [١٨]

وفي سبيل إثبات مصادره يعتبر الجابري أن كتاب أصول الكافي لمحمد بن يعقوب الكليني المتوفى سنة ٣٢٩ هـــ من أهمها " وان أحاديث الأئمة الشيعة لا ترويها المصادر الشيعة وحدهـــا بل يرويها المؤرخون والمتصوفة وغيرهم ومنهم المسعودي الذي كان شيعياً والـــذي روى عـــن الإمام علي حديثا نقرأ فيه بوضوح رؤيا هرمس ، والواقع أن الجابري كان قد سجل هذا النـــص في كتبه كاملاً حتى يجعل منه مرجعاً للمقارنة بين كل الأحاديث الموجودة في الكافي وغيره وبين ذاك النص محاولاً إثبات أن كل الأدبيات المتعلقة بنظرية الإمامة لدى الإمام الصادق والتي يصفها (المنسوبة إليه) مأخوذة حكما من الهرمسية ومن اجل مقارنة تطبيقية يقول الجابري " وتأكيدا لهذا المعنى تنسب المصادر الشيعية إلى الإمام جعفر قوله :

"إن الله خلقنا من نور عظمته ثم صور خلقنا من طينة مخزونة مكنونـــة تحـــت العـــرش فاسكن ذلك النور فيه فكنا نحن خلقاً بشراً نورانيين ولم يجعل لأحد في مثل الذي خلقنا فيه نصيبـــاً وخلق أرواح شيعتنا من طنيناً" ليس هذا فحسب انه يقرر أن المصادر الشيعية تؤســـس أحـــاديث الأئمة في هذا الموضوع على حديث نبوي يقول فيه النبي عن نفسه : أول ما خلق الله نـــوري ، وهناك حديث مماثل يقول فيه النبي كنت نبياً وآدم بين الطين والتراب ، والمطابقة هنا بين النـــور المحمدي أو الحقيقة المحمدية وبين العقل الكلي في الأدبيات الهرمسية مطابقة وأضحة يصرح بها بعض فلاسفة الإسماعيلية وبعض كبار المتصوفة الباطنيين كابن عربي".

وهكذا يوحّد هذا الباحث تماما بين الإمامية والإسماعيلية والتصوف السني (كما يصفـــه) في نظرتهم للإمام باعتبارها مستقاة كلياً من تراث ليس له علاقة بالإسلام وســـابق عليـــه بعـــدة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

قرون ، وأعني بذلك التراث الفكري المتصل بهرمس ، هذا الاتصال يبدو أيضاً في الرقم (اثنا عشر) وهو عدد الأئمة لدى الإمامية متشابهاً مع أسباط عيسى وموسى وحتى مع العيون التي فجرها موسى عندما ضرب الصخر بعصاه ، وكذلك مع مقولة أن ما يفصل رسول عن رسول هو اثنا عشر إماما وان لكل نبي وصيّاً ..الخ"

يتابع الجابري أن كل ذلك يترافق مع تأكيد الإمام الصادق على أن الإمام أفضل من النبي ودون الرسول ، فهو يسمع الكلام ولا يرى الشخص ، فهو أي الإمام في نبوة مستمرة لاتختم الا بعودة الإمام الغائب الثاني عشر ، وما ختم هو للرسالة لأن محمداً خاتم النبيين ، إضافة إلى تأكيده على مقولة النور المحمدي والحقيقة المحمدية المتسربة إلى الولاية التي اختصت بالإمام علي كخاتم الأولياء الذي تباطن ولايته النبوة كولاية مطلقة ، متصلة بالإمام الأخير الثاني عشر في ولايته الخاصة حتى رجعته . فالإمام علي من نفس نور محمد ، كما قال رسول الله :"أنا وعلي من نور واحد " وقوله " خلقت أنا وعلي من نور واحد قبل أن يخلق آدم بأربعة عشر ألف عام .." في الحقيقية فإن الباحث الجابري لا يخصص الشيعة (وما ينسبونه) إلى الإمام الصادق في هذه المقولات بل هو يشرك معهم مصادر من السنة في أقوال مشابهة ، وخاصة الحديث الشهير المذكور في الصحاح جميعاً بألفاظ مختلفة وان اتفقت على ما يلي عن رسول الله (ص) : لولا أن يقول فيك طوائف من أمتي ما قال النصارى في عيسى بن مريم لقلت فيك اليوم مقالا لا تمر على ملأ من المسلمين إلا اخذوا من تراب رجليك وفضل طهورك يستشفون به ، ولكن حسبك أن تكون مني وأنا منك ، ترثني وأرثك وأنت مني بمنزلة هارون بن موسى ألا انه لا نبي بعدي " .

هذا الإشتراك في رفع منزلة الإمام علي بين السنة والشيعة يجد الجابري ذاته مقسوراً على إيراد أحاديثها بسبب استحالة تجاهلها ، وبما أنها ستكون موضع نقاش موسع في هذه الدراسة ، يجدر إكمال أفكار الجابري حول الإمام الصادق عندما يورد في أحد أحاديثه الشهيرة أيضا يقول : أن الإمام إذا أراد أن يعلم علم ، وقوله " أن سليمان ورث داو ود وأن محمداً ورث سليمان وأنا ورثنا محمداً ، وان عندنا علم التوراة والإنجيل والزبور وتبيان ما في الألواح [١٩] مضيفاً أن الصادق أكد أن " ليس هذا هو العلم ، إن العلم هو الذي يحدث يوما بعد يوم وساعة بعد ساعة " أي وحياً ، ومن هنا نفهم .. كما يقول الجابري – معنى قول الصادق لأصحابه أنه كان يتأمل القرآن حتى يسمعه من جبريل كما سمعه محمد صلى الله عليه وسلم .

غني عن القول أن أصول الكافي هي ابرز مصادر هذا الباحث وهي مسألة ستكون

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مسرح نقاش هنا لكن الأهم هو متابعة أكيدة باستمرار على الموروث الهرمسي لكل ما يورده عن الإمام جعفر بن محمد ، حتى وهو يفرق بين مجموعتي تلاميذه المفترقين إلى هشام بن الحكم من جهة كاثنى عشرية أو مع أبي الخطاب (وميمون القداح) كإسماعيلية بفلسفتهم الهرمسية التي تمحور حول محور واحد هو النبوة والولاية بالاستناد إلى نفس الموروث النقلي الموجود لدى الكافي .

وبما أن مهمة هذا البحث تكتفي بما يتعلق بفكر الإمام الصادق على أرضية الإمامية الأثنى عشرية فلا مجال أذن لتحليل وجهة النظر الأخرى المتصلة بالإسماعيلية .

الإمام أذن هو ما يوحّد عرفانية الطرفين ، فكل شيء يدور حوله ، العقيدة والفلسفة والتاريخ والسياسة ليصل هذا الباحث أخيراً إلى الاتصال بمسألة الزمن ، فالزمان العرفاني الشيعي زمان روحي باطني قوامه الارتباط بالإمام ، فالشيعي لا يمكن أن يحيا حياته الباطنية الروحية بدون حضور الإمام في قلبه ، والأرض لا يجوز أن تخلو من إمام ، فهو إن غاب يظل حاضراً في قلوب أتباعه وشيعته ، فلا بد أن يعود ليجعل حدا ونهاية للجور والظلم والطغيان ، هو صاحب الزمان في غيبة تنتهي مع قرب انتهاء الزمان .

هنا يردد الجابري بيقين شائعة انتظار الشيعة لخروج المهدي في مدينة سامراء ، معتبرا أن الشيعة يعيشون معه زمناً واحداً ممتداً كيوم واحد ، ولكن له بداية ونهاية ، بدء ورجعة .. انه زمان دائري [٢٠] يبدأ من نقطة ليعود إليها دون تقدم إلى الإمام أبداً.

في هذا السياق يتابع هذا الباحث العزف على ذات الوتر الذي يتعلق بالتشكيك بنظرية المهدي برمتها عندما يقول " ويؤسس الشيعة الأثنى عشرية زمان الغيبة هذا على حديث منسوب إلى النبي يقول فيه (لو لم يبق من الدنيا إلا يوم واحد لطول الله ذلك اليوم حتى يبعث الله رجلا مني يواطئ اسمه اسمي واسم أبيه اسم أبي يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت جوراً وظلماً) هذا اليوم الطويل هو زمان غيبة الإمام وزمان انتظار رجعته .. وقد يراه الخواص منهم .. انه المتصرف في شؤون شيعته القائم على أمورهم المدبر لوجودهم والمالئ زمانهم " .

ويخلص الجابري آخراً إلى ما يلي " إن شخصية الإمام " قصة المبدأ والمعاد من تشييد العقل ولكن لا من اجل تكريس قدرته والاعتراف بفاعليته والتعاطف مع طموحاته ، بل من اجل إلغائه وإحلال قدرة معرفية أخرى محله هي العرفان وعرفان الإمام ، والإمام وحده .." هو عرفان بالوراثة أذن لشخص واحد ، عرفان يغرف من منبع الهرمسية التي ينتسب إليها الجميع [٢١] [٢٢] .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مناقشة مقولات :

عندما كتب الجابري دراساته حول العقل العربي والتراث الإسلامي ، أثـــارت ضجيجـاً ونقاشاً واسعين في الساحة الثقافية العربية بين مؤيد ومعارض **** وتأتي أهمية هذه الأفكـــار بين أنها المرة الأولى التي يقوم فيها باحث باتهام الأيديولوجيا الإسلامية بأنها مصدر تخلف العقـل العربي الإسلامي ، وبالتالي جمود المسلمين عن التقدم وتخلفهم عـــن أوربـا ووقوعـهم تحـت سيطرتها دون أن يتعرض للاتهام بالإلحاد والردة من قبل الأصوليين من جهة وتمكنه ببراعة مـن تحليل التراث الإسلامي لتهشيمه ، متمتعاً بشهادات حسن سلوك إســلامية مــن قبـل المفكريــن العلمانيين العرب الذين قاموا بمناقشة أفكاره من جهة أخرى .

إذن يستبعد الجابري أية مسؤولية لظرف خارجي عن تخلف العرب محيلاً السبب نـــهائياً على بنية العقل الذي تشكل لدى الأمة عبر عصور ، وساهم فيه الدين الإسلامي ، وطريقة تعـامل هذا العقل مع مقولة الألوهة والطبيعة ، عندما أحال الطبيعة والعلم والتجريب العلمي إلى هـــامش اهتماماته لتصبح فكرة الألوهة والعرفان ونقي العقل بديلاً عنها ، الجابري يمنـــح حـلاً وحيـداً يطرحه أمام العقل العربي الإسلامي بطريقة غير مباشرة وهو : القطيعة النهائيـــة مـع تـراث الماضي والزمن الدائري العائد إليه ، وإتباع مناهج أوربا في وسائل التقدم بما في ذلـــك رفـض الدين كمعيق للتقدم العلمي لأنه يقيل العقل بمقولات لا عقلانية ، وجعل العقل هادياً وحيداً علـــى درب زمن له اتجاه وحيد ممتد إلى المستقبل المتقطع تماماً عن الماضي . أن إثارة هـذا البـاحث للاستفزاز العقلي تأتي من انه الوحيد بين الباحثين ذوي الأصول المذهبية السنية من يحمل مدرسة الإمام جعفر الصادق (رض) الفكرية مسؤولية تخلف العقل العربي – وهو عندما يـورد بعـض الأسباب الخارجية لتأخر الدولة العربية وانحطاطها ، فإنما يحيل الأسباب أيضا إلى طبيعة العقـل العربي ذاته أيضا.يقول:

" ذلك أنه بينما استطاعت المعارضة الشيعية أن تستقطب المضطهدين وتكتسـب مظـهرا تقدمياً ثورياً ... وظّفت هذه المعارضة منتجات العقل المستقيل كأساس معرفي لأيديولوجيتـها ... ومـن هنا التناقض بين الطابع التقدمي للأهداف والطـابع اللاعقلانـي للأيديولوجيـا وأساسـها المعرفي .. بينما تبنت دولة السنة موقفاً معاكساً : محافظة على المستوى الاجتماعي ، وثوريـــة عقلانية على المستوى الأيديولوجي والمعرفي .. وعندما تدخلت العوامل الخارجيـــة : حـروب صليبية ..تتار .. مسيحية .. اندلسية ، تراجع الطابع الثوري التقدمي للأهداف عنـد المعارضـة الشيعية واستفحل الطابع اللاعقلاني للأساس المعرفي لأيديولوجيتها وتراجـع الطـابع العقلانـي

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لدولة السنة واستفحل الطابع المحافظ لأهدافها الاجتماعية : والنتيجة تعميم الرؤية اللاعقلانية على الصعيد المعرفي والأيديولوجي للجميع .. وبدء عصر الانحطاط "[٢٣] .

هذا التقرير الواضح جدا لتقييم التاريخ الإسلامي دفعة واحدة ، لا يوجد في دغمائيته وجرأته مشابهاً لدى أي كاتب في أي طرف درس هذا التاريخ " هذه أسباب تخلف المسلمين أما عن أسباب تقدم غيرهم فهو يقرر كما يلي :" الموروث المسيحي اليوناني تميز بنضال الكنيسة ضد الغنوص أي العقل المستقيل نضالاً متواصلاً مما أقصاه عن حظيرتها ، وإدخالها للمعقول العقلي اليوناني وفي مقدمته المنطق مما جعل العقل الكوني يبقى حاضرا باستمرار في الفكر المسيحي ثم(وهذا هو الأهم) تم الفصل بين الدين والسياسة ، كما جعل الصراع ضد الكنيسة وحدها دون التدخل في مسألة الإمامة ، بل من اجل الحقيقة ذاتها .." ثم أن هناك عاملا آخر ساهم في النهضة العقلية لأوروبا ، وهو استفادتهم من النتاج العلمي الإسلامي [٢٤] .

يبدو الجابري رغم رصانته العلمية منحازاً بطريقة عجيبة إلى مفرزات الحضارة الأوروبية إلى درجة وقوعه في المغالطة والتناقض واللاعلمية ، فليس اسهل من دحض مقولاته وذلك لوقوعه في مأزق ربط تعليق الأسباب أو إحالتها إلى عنصر وحيد، وفي حالتنا البحثية يتعلق هذا العنصر تحديدا بفكر مدرسة أهل البيت ، انه في نظرية الإمامة ومتفرعاتها أو في العرفان وهو أيضا نتاج فكر هذه المدرسة ويتصل جذرياً بنظرية الإمامة ، محدداً أن التمسك بهذا الفكر أدى إلى إلغاء العقل الإسلامي بما سماه العقل المستقيل ، وكما شاهدنا فهو يحمل الصراع الذي قادته هذه المدرسة ضد السلطات السنية التي أعلت شأن العقل نظرياً واحتقرته تطبيقياً على صعيد (السياسية والمجتمع) إضافة إلى عوامل خارجية محدودة ، يتحمل هذا الصراع مسؤولية بدء الانحطاط .

١-في خطاب يحاول الجابري إكسابه طابع العلمية يقرر (مستخدماً لفظة اقرر) أن الفكر الشيعي فقهاً وكلاماً وسياسة اكتمل مع جعفر الصادق ....(وكما رأينا فهو في مجمل دراساته يحمل هذا الفكر المسؤولية عن الانحطاط)فهل ظل أميناً لمقولته هذه ؟ كغيره من تيارات معادية للتشيع يبدو الجابري بعيداً عن الالتزام بما يقرر ، وخاصة عند ما يشكك في كل حديث للإمام الصادق سابقاً إياه بعبارة (منسوب إلى) و بهذا فهو يقرر كغيره من تيارات البحث المضللة وأن التشيع كمدرسة فكرية كلامية فقهية وسياسية ابتدأ بعيد رحيل الإمام الصادق ، ورغم إتباعه لمنهج النفي هذا فان مسار بحوثه تعترف باستمرارية مدرسة أهل البيت في تكاملها من كافة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

النواحي رغم الغيبة الكبرى لآخر الأئمة ،محمد المهدي (رض)على هذه الأرضية يبدو الإمام جعفر بن محمد واضعاً للأسس ، ولكن كل ما تلاه من إنجازات فكرية فهي من إنتاج تلاميذه وتلاميذهم ، و من إنتاج المؤسسة الشيعية على درب اكتمالها كمدرسة تمكنت من النضوج رغم كل ما أحاط بها وما قام به أتباعها، وقد اتخذوا طابع المعارضة السياسية والفقهية ، من صراع ضد السلطات الحاكمة .

اذاً لم يتوقف التشيع برحيل الإمام الصادق عن معالجة المستجدات و إنتاج كبار المصادر العلمية في مختلف نواحي العلوم ، وخاصة الفقه والحديث وعلم الكلام والعرفان ،لقد كان لعصر الإمام و هو مرحلة نضج عصر التدوين في الحضارة الإسلامية (٨٠-١٤٨ هـ)أن يقدم عدداً ضخماً من الكتب ، وحفظت لنا المراجع [٢٤]المختصة أسماء كثيرة لكتب لم يصلنا منها شيء ،أما بداية عصر الغيبة الكبرى في القرن الرابع الهجري فقد قدمت للعلوم الإسلامية عدداً بارزاً من الأسماء ممن تركوا بصمات لا تنسى، و اصبحوا أسس مدرسة التشيع (الكليني ، الصدوق ، المفيد القمي ...وغيرهم).

تميزت المؤسسة الشيعية في عصر الغيبة الكبرى برفض توقف الاجتهاد في الدين الإسلامي ،بينما قررت مؤسسة السلطة و ما ارتبط بها تاريخياً من مذاهب إسلامية أن يتوقف الاجتهاد مكتفية بالمذاهب الأربعة التي نضجت عملياً في القرن الثالث الهجري (المالكي،الحنفي الشافعي،الحنبلي). تثابر المؤسسة على تجديد أدواتها البحثية بما في ذلك النظر في صحيح الكافي ورفض كل مايتلاءم مع أصول علم الحديث بما يزيد على ستة آلاف حديث ، ورغم ما يلصق عليها من اتهام بتكريس الكهنوت فان التعددية الاجتهادية تصل إلى درجة من الحيوية بحيث تمنع أي جمود أو تحكم لأي مرجع مهما كانت درجته من العلم ، ولعل شهادة كاتب مستشرق مثل (ستانلي لوريمر) في كتابه (دليل الخليج)[٢٥] والتي يقول فيها : يقوم العالم الشيعي المجتهد بعدة وظائف ، فهو محاضر في اللاهوت وهو قاضي شرع وهو مدرس شريعة إسلامية (..) كلمته بين أتباعه قانون ، ويتلقى مبالغ كبيرة من المال من إخوانه في الدين الذين يدفعونها زكاة أموالهم أو صدقة أو لأغراض أخرى في سبيل الدين (..) يختار الجمهور من يحب تقليده وأتباعه ومن هو المجتهد الحائز على شروط الفقيه ، وذلك عملياً يمثل الحالة الديمقراطية الابرز ، سادت منذ غياب المهدي وحتى اليوم ، ورغم الخلاف الاجتهادي الحاصل فان المؤسسة لم تشهد صراعاً ذي قيمة تذكر طوال تاريخها ..))

هذه الشهادة التي تترافق بما هو مشهور عن عدم جواز تقليد الميت ، جعلت من مؤسسة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الإمام لتشيع مدرسة تنظر دوماً الى المستقبل في زمن مستمر الى الأمام ، يعتمد على جهود الأجيال الجديدة في الاستنباط والتجديد ، مما جنبها الجمود ومكنها من إنتاج آراء في كل مستجدات العصر ، بدءاً من البنوك وحتى الموسيقى ومشكلات المرأة . وهنا يجدر الاعتراف بأن المؤسسة سبقت المؤسسات الدينية للجمهور وأكسبت التشيع أنصاراً وأتباعاً يعدون اليوم بمئات الملايين .

٢- هل يمكن أن تعاني مؤسسة دينية هذه سماتها من الفصام بين بناها الفوقية والتحتية بين المظهر التقدمي الثوري لممارستها ، وبين توظيفها لمنتجات (العقل المستقيل) كأساس معرفي للأيديولوجيا التي تشكل بناها العليا ؟ كما يقول الجابري ثم هل إن مؤسسة السنة كانت ثورية عقلانية على المستوى الأيديولوجي والمعرفي قائم على بنى تحتية محافظة في المستوى الاجتماعي ؟

إن من ابرز منتجات العقل الأوربي التي يتجاهلها هذا الباحث هي مقولة تلازم النظرية والتطبيق في حركة المؤسسة ، بمعنى أن فشل التطبيق يؤشر على فشل النظرية والعكس صحيح لهذا تعتبر أية مؤسسة قامت على الأيديولوجيا في مجال التطبيق ناجحة إذا تمكنت من الاستمرار بنجاح مدة محددة من الزمن ، وعلى هذا الأساس لا يمكن فصل النظرية كبنية فوقية عن تجلياتها في الممارسة أو قابليتها للحياة في مجال التطبيق على الأرض ، وغالباً ما تدرس المؤسسات ذات الأيديولوجيات على أنها فشلت أو نجحت بمقياس يعتمد أساسا على مدى وضع تلك الأيديولوجيات في التحقيق الفعلي .

على أساس مقياس كهذا ، يمكن القول أن رسول الله (ص) تمكن من بناء الدولة الإسلامية المستندة إلى إيديولوجيا الإسلام كبنيان معرفي ونجح في ذلك إلى ابعد الحدود في حياته على الأقل ، مما يؤشر إلى مصداقية النظرية ونجاحها ، - وهذا ما لم يتعرض له الجابري - بينما قامت بعده مؤسسته الدولة لدى السنه على أساسيين عقليين اعتمدا على القياس أو الإجماع (كما يفترض) باجتهاد يقول إن نظرية الإمامة في هذه الدولة تستند إلى الاختيار الحر والشورى ، بينما تقدمت مؤسسة أهل البيت باعتراض مفصلي مستقى من نصوص الأيديولوجيا الإسلامية ذاتها على أن الإمامة تم تحديدها بالتبعية من قبل الرسول مستقرة في الإمام علي بن أبي طالب (رض) والأثنى عشر من أبنائه ، بتوضيح أن أخرهم (الثاني عشر) يغيب عن هذه الدنيا طويلاً ثم يعود ثانية ليملأ الأرض عدلاً بعد أن ملئت جوراً .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

هذا البناء الأيديولوجي المعرفي لمؤسسة أهل البيت والذي أنشأه عقل الإمام الصادق ---_ - مبلوراً فكر هذه المؤسسة - لم يكن عقلانياً ، كما يقول الجابري ، ومع ذلك فقد قاد مؤسسة المعارضة (التقدمية الثورية) في التاريخ الإسلامي وكان له استقطاب واسع من قبل المضطهدين والمسحوقين في مواجهة السلطات الغاشمة ، حسب تعبيره ، رغم أضافته إلى (تراجع الطابع التقدمي الثوري للأهداف فيما بعد عن المؤسسة الشيعية واستفحال الطابع اللاعقلاني للأساس المعرفي لأيديولوجيتها) أما دولة السنة المؤسسة على الطابع العقلاني فقد تراجع هذا الطابع ، استفحال الطابع المحافظ لأهدافها الاجتماعية وتعميم الرؤية (اللاعقلانية) على الصعيد المعرفي للجميع ، وكان الانحطاط ، كما يقول أيضا ، فهل يمكن الافتراض إن قراءة كهذه للتاريخ الإسلامي تتمتع ببعض المصداقية تبعا لجدلية النظرية والتطبيق التي افرزها العقل الأوروبي ؟

يتأمل مجرد لمجريات التاريخ الإسلامي نجد مفارقة أن الأيديولوجية (اللاعقلانية) لمؤسسة أهل البيت تمكنت من الاستمرار وبناء المؤسسة في المعارضة ، بإصرار أنها ليست مؤسسة السلطة عندما رفض الإمام الصادق تولي السلطة عندما عرضت عليه قيادة الثورة[٢٦] قائلا " هذا ليس زمني " هذا الإمام تمكن من تشكيل الحزب الثوري التقدمي الشيعي أذن على قاعدة نظرية اللاعقلانية ، وظل يعمل على السيطرة الأيديولوجية على العالم الإسلامي باستقطاب ليس له مثيل كما يعترف الجابري ، بينما فشلت مؤسسة السنة في وضع نظريتها (العقلانية موضع التطبيق على صعيد مؤسسة السلطة عندما تحول النظام إلى ملكية ليس لها علاقة بالانتخاب والشورى بعد وفاة الرسول (ص) مباشرة ، حتى بالنظر إلى جدلية اختيار الخلفاء الثلاثة الأوائل ، وكل الجدل الذي ثار حولها [٢٧] ، وعلاقة هذا الاختيار بجوهر الإسلام قرآناً وسنة نبوية .

في تنظيراته لما هو معقول أو غير معقول في نظرية الإمامة والمهدية المرتبطة بالمؤسسة الشيعية يقفز الباحث الجابري كما فعل غيره فوق معطيات إسلامية أساسية اعتمد عليها هذا الطرف وتجاهلها ذاك ، وان كان أشار إلى شيء منها على طريقته في الرفض .

يتفق المسلمون جميعاً على مقولة النور المحمدي والحقيقة المحمدية ، ويتفقون على مكانة الإمام علي بن أبي طالب من الرسول (ص) ويتفقون على وجوب الإمامة والمهدية [٢٨] والرجعة وإذا رفض بعضهم أو لم ينقلوا أحاديث نبوية عن المهدية ، فهم ينقلون أحاديث نبوية في أهم الصحاح لدى السنة (البخاري ومسلم) عن عودة المسيح [٢٨] ونزوله على مئذنة في دمشق .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كل هذا موجود في أحـــاديث رســول الله (ص) فــي مختلــف الصحــاح لــدى كــل الأطـــــــراف (ومن أراد فليرجع إليها في فطانها) فهل يشكل ذلك الجـــانب اللامعقــول فــي الأيديولوجيا الإسلامية؟.

لقد شكلت الأيديولوجيا الإسلامية العقل العربي الإســـلامي فمـــا هـــي حـــدود المعقـــول واللامعقول في هذه الأيديولوجيا حتى يجري اتهام التشيع بمسؤوليته عن سيادة (العقل المســتقيل) في الحضارة الإسلامية ؟

الأديان تشكل الجانب اللامعقول في الحضارة الإنسانية ، استناداً إلى مجمل فلسفة الجابري في دراساته جميعاً ، ومشهور أن التيارات الفكرية الأساسية في أوروبا الحديثة وخاصة الماديـــة والمفرزة من البرجوازية الصناعية ، هذه التيارات حاربت الكنيسة والدين المسيحي وأبعدتهما من الحياة اليومية بحكم تحالف الكنيسة مع الإقطاع وفي سياق هذه الحرب انتشر الإلحاد في أوروبـــا مترافقاً مع التقدم الصناعي المتسارع ، من هنا نبعت أفكار تناقض الدين مع التقدم ، الأفكار التـــي يحاول التيار العلماني الأوروبي الغربي سحبها وتطبيقها ميكانيكيا على الواقع العربي كما رأينا .

٣- تشكل نظرية المهدي جزءاً هاماً من الأســـاس المعرفـــي للأيديولوجيـــا الشـــيعية ، وبارتباطها بالإمامة الأثنى عشرية والعصمة شكلت الهيكل المعرفي لمدرسة أهل البيت .

ترتبط الإمامة بفلسفة الحكم والمرجعية الدينية للمسلمين ، أما المهدية فهي تتعلق جذريـــا بقيمة العدالة على الأرض في هذه الحياة الدنيا وإذا كان الجانب اللامعقول في مسألة الإمامة يتعلق بنص رسول الله عليها للإمام علي فقط كما يقول الجابري ، فإن المهديـــة غـــير معقولـــة عنـــده بالإطلاق .

لكن علم الأصول ، أو علم الكلام الذي تأسس في مدرسة الإمام جعفر بن محمـــد (رض) بوراثية الجذور من الأئمة الذين سبقوه وأولهم الإمام علي بن أبي طالب (رض) أحـــاط الإمامـــة والعصمة بسياج العقلنة الذي ميز عملياً مدرسة الإمام الصادق في الأصول أو الفـــروع (علـــم الكلام أو الفقه) لقد وضع العقل كأحد المراجع الأساسية في الاستنباط إلى جانب القرآن والحديـــث النبوي [٣٠] بينما رفضته (العقل) المدارس الفقهية الأخرى ، وخاصة المدرسة السلفية بقيادة ابـــن تيمية .

أصبحت عقلنة فكرة الإمامة كما وردت في مدرسة أهل البيت ركناً أساسياً من أركان علـم

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الكلام ، وكمثال نلخص مكانتها كما يلي [٣١] أقرت مدرسة أهل البيت وجوب الإمامة العقلي على الله تعالى، وجاء في تعليل ذلك : أن التعليل يتعلق بأسباب ثلاثة :(أوردناها في بحث علم الكلام الاسلامي في الفصل الأول ولابأس بالتكرار)

١- اللطف الإلهي بعباده فلا يتركهم هملا دون إمام .

٢- ضرورة وجود العارف بالله دائما وهو الإمام .

٣- التعليم : فالإمام هو المعلم ، وناقل العلم عن رسول الله وحافظ هذا العلم .

أما العصمة فقد ورد عن هشام بن الحكم تلميذ الإمام الصادق الأبرز تعليلاً عقلياً جميلاً لها" أن جميع الذنوب لها أربعة اوجه لا خامس لها : الحرص - الحسد- الغضب - الشهوة ، وهذه الصفات منبثقة كلها عن الإمام ، فلا يجوز أن يكون حريصاً على هذه الدنيا وهي تحت خاتمه ، فهو خازن أموال المسلمين فعلام يحرص ، ولا يجوز أن يكون حسوداً لان الإنسان إنما يحسد من هم فوقه ، وليس فوقه أحد ، فكيف يحسد من هم دونه ، ولا يجوز أن يغضب لشيء من أمور الدنيا إلا أن يكون لله عز وجل ، وقد فرض عليه إقامة حدوده ولا يجوز أن يتبع الشهوات ويؤثر الدنيا على الآخرة ، كما ينظر إلى الدنيا ، فهل رأيت أحداً ترك وجهاً حسناً لوجه قبيح أو طعاماً طيباً لطعام مر ، وثوباً ليناً لثوب خشن ، ونعمة دانية باقية لدنيا زائلة فانية .

إذا تمعنّا في هذا الكلام فان مدرسة الإمام الصادق الفكرية تضيف اليه عقلنة الإمامة والعصمة تعليلاً عقلياً جميلاً للزهد والعرفان الإلهي النابع من معرفة الدنيا والزمن والمصير .

إن كل ما نقل عن الإمام الصادق يرجح معرفته أن الإمامة المتوارثة تنتهي عند محمد المهدي بن الحسن العسكري(رض) وكان رسول الله (ص) قد تنبأ بذلك في حديثه الشهير المتواتر والمختلف على تفسيره (لا يزال أمر هذا الدين قائما ما وليهم اثناعشر إمام كلهم من قريش) والذي يفسر حديثاً على النص النبوي على الرقم الاثني عشري من جهة وكلمة إمام من جهة أخرى .[٣٢]

ولن يفاجئنا ذلك الكم من المؤلفات التي عالجت هذه المسألة من قبل جميع الأطراف ولن تفاجئنا التعليلات العقلية التي تحيط بنظرية المهدي في الاجتهادات الحديثة لمدرسة أهل البيت بدءا من الدليل القرآني وصولا إلى الدليل العلمي ، ولكن ليس هذا ما يستقطب الأهمية في هذه المسألة . إن أهم ما في فكر مدرسة الإمام الصادق وموضوع الغيبة أنها ربطت الغيبة بحرية اختيار الإمام القادم ، بعيداً عن الالتزام بما أثار موجة الاتهام لنظرية الإمامة الشيعية بأنها حالة أرستقراطية ، وان الإمام يجب أن يكون حكماً من نسل الإمام علي ، أما مدرسة السنة التي

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فرقها التشوش في نظرية الإمامة وخاصة في قضية الحاكم ، الذي يتغلب على السلطة دون العودة إلى رأي أهل الحل والعقد فلم تصل عملياً إلى نتيجة واضحة بالقدر الذي قدمتـــه أفكـــار الإمـــام الصادق لعصر ما بعد الغيبة الكبرى .

لقد وضحت هذه المدرسة شروط الإمام ولكن في إطار اجتهادات مؤسسة التشيع وأصرت على أفكار وقيم سامية يجب أن تكون فيه وأهمها العلم والعدالة ، والأهم من ذلك – تبعاً لتقـــاليد شروط الاجتهاد للمدرسة – أنها جعلت للعقل مكانة أساسية في تحديد شكل نظام الحكم في غيبـــة الإمام بشروط المؤسسة وتعددية المراجع والفقهاء الممتلكين لناحية شرط الاجتهاد رغم صعوبـــة هذا الشرط .

إن اقرب ما يمكن أن توصف به مدرسة الإمام الصادق في مسألة الإمامة في عصر الغيبة الكبرى أن الدولة الإسلامية القادمة يجب أن تبني على غرار المدينة الفاضلـــة التـــي وصفـــها أفلاطون في جمهوريته ورغم مثالية ذاك التوصيف فانه اقرب للإسلام جوهرا وبارتباطـــها (أي نظرية الإمامة في عصر الغيبة) بمقولة الرجعة لإقرار فكرة العدالة للأرض بعد أن ملئت جورا، تثبت أيديولوجيا مدرسة الصادق أنها اكثر واقعية عندما تتحدث عن قيام المخلص الذي يشكل حلماً لكل المظلومين على الأرض التي ملأها الظلم والجور الذي نـــاضلت مؤسســـة التشـــيع ضـــده ونضجت تحت ظلال هذا النضال المستمر، وهو يأخذ في كل عصر أشكالاً جديدة تبعـــاً للحريـــة الاجتهادية المستندة إلى العقل والمصلحة في توصيف شكل النضال الملائم .

إن الشكل العقلاني للرجعة في مدرسة أهل البيت (بارتباطه بالإمامة والعصمة والمهديـــة) جعل منه عملياً ابرز مثل للاستقطاب الجماهيري في مؤسسة التشيع ، وفي سيادة الاجتهاد العقلـــي للمؤسسة عبر العصور استمر التمسك بنظرية المهدية والرجعة من قبل جميع المفكرين فيها ، لـــم يرفضها أحد منهم ولم تواجه انقساماً بسببه لاقتناع الجميع بالأصول النبوية له في أحاديث رســـول الله من هنا تبرز إشكالية العقل والنقل في الأيديولوجيا الإسلامية والتي أغفل البـــاحث الجـــابري التعامل معها ، مقتصراً على ضرورة العقل والعقلنة ورفض كل ما يخالف منتجات هذا العقـــل ، فما الذي توصل إليه من تحديد لمعنى العقل ؟

٤– لقد افرز الجابري جزءا كبيرا من أبحاثه لتوصيف ماهية العقل ، حتى توصل به إلـــى المفهوم النسبي كنتاج للثقافة السائدة ، البعيد عن أن يكون متصفاً بالإطلاق والشمولية .

هذا المفهوم عن العقل الذي توصل إليه بغاية مهاجمة العقل العربي وتحميلـــه مســـؤولية

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

التخلف الراهن والمتدرج تراجعاً حتى بداية عصر الانحطاط ، جعل من النقاش حول العقل ذاتـــه مستنداً إلى مقاييس العقل ، أمراً يتسم بالنسبية ، فما الذي يمكن الاتفاق عليه في كـــل توصيـــف للعقل ضمن ما وقع فيه ، فصل الثقافات الإنسانية عن بعضها بالإطلاق وإقرار عدم تـــلا قحـــها بحيث تشكلت العقول البشرية في تجمعاتها الإنسانية المنفصلة عرقياً ، واصبح لدينا تبعا لذلك عقل عرقي وعقل أوروبي وعقل زنجي وعقل للاسكيموالخ ...

تميزت الحضارة العربية بأنها حققت من خلال الأيديولوجيـــا (اللاعقلانيـــة) بأساســـها المعرفي (في رأي الجابري) قفزات مذهلة على كل الصعد ، ليس هذا هو بيت القصيـــد ، فقـــد تميز التقدم على قاعدة الجانب العاطفي من الإنسان (فلسفة ، علوم اللغة والشعر والدين ، الفـــن الإسلامي الخ ..) بتصاعد في النضج لازالت الأمة العربية تعيش على أمجاده حتى الآن ، بـــل إن الحضارة الأوربية استفادت من هذا الجانب ربما اكثر من استفادتها من الجانب العلمـــي المتعلـــق بعلوم الرياضيات والفيزياء والكيمياء والطب وتقنية الآلة وغيرها ، هذا الجانب العاطفي لا يفـــارق العقلانية رغم ذلك ، فكل إبداعات الإنسان يحايثها العقل دائما ، وتحايثه .

يتحدث الجابري – كما قرأنا – عن فرع من المسيحية والارسطية مـــيز المســـيحية عـــن الإسلام بطابع أكثر تقدمية أو عقلانية .إن من المتعارف عليـــه أن بـــزوغ الحضـــارة العربيـــة الإسلامية ترافق بانحطاط للحضارة الأوروبية عندما تبعثرت مؤلفات الفلسفة اليونانية ووصلـــت إلى مدرستي الرها الإسكندرية مما مكن المترجمين العرب من إعادة إنتاجها بشكل كلي ومختلـــف وموسوم بالطابع الفكري العربي ، ثم إعادتها إلى أوروبا كان ذلك بحد ذاته الإنجاز الابرز الـــذي أمسكت به الحضارة الأوربية إن الجابري وبطريقة متعسفة يقرر أن الترجمة جـــاءت اســـتجابة لتحدي التشيع الباطني للدولة العباسية ، في سبيل أن يوضع العقل الارسطي في مواجهـــة الفكـــر الشيعي اللاعقلاني ، لكنه وبطريقة متناقضة .. يتهم مدرسة الإمام الصادق بأنها (تهرمســـت) أي استفادت من نتاج الفكر اليوناني في جانبه العرفاني على الأقل ، فهل يمكـــن القـــول أن الفلســـفة الارسطية .. وقد أعاد العرب إنتاجها – هي التي وحدها تحتكر التفكير العقلي القادر على إنتـــاج التقدم ؟ وهل إن الجانب العقلي الذي وسم مدرسة الإمام الصادق ، خاصة انه يمثل نضج مرحلـــة عصر التدوين وبزوغ العلوم المتصلة بالمنطق كالنحو والعروض وعلم الكلام وغيرها ، هـــل أن هذا الجانب يمكن إهماله أو وسمه باللاعقلانية أيضا رغم انه سابق على عصر الترجمة ؟ دومـــا يتصف الجانب المتعلق بتوصيف العقل في فلسفة الجابري بالتشوش والاضطراب فـــي وضعـــه موضع التطبيق على مدرسة أهل البيت . ومع ذلك فليست الحياة عقلاً دائماً .. ليس البحث العلمي

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

عقلاً فقط ولا يكون الإبداع البحثي مجرد عقل وحسب (فالعالم ليس عقلا) ويعلم الجابري تماما أن الفلاسفة على خلاف مستمر (ومنهم الفلاسفة الثلاثة سقراط - أفلاطون - أرسطو) في أن العقل هو مجرد إنتاج للمادة المتصلة بالحواس ذلك انهم اقروا وخاصة أستاذهم سقراط بان في العقل مبادئ لم تتسرب إليه من الحواس [٣٤] . أما في العصور الحديثة فان المدرسة الفرويدية في علم النفس وخاصة العالم (كارل يونغ) يتحدث عن وراثة التصورات العليا في العقل خلال الأجيال المتعاقبة للأمم [٣٥] وتقر مباحث مدرسة (الغشتالت) في علم النفس والتربية والتعليم [٣٦] عن مسألة الاستبصار في الوصول إلى نتائج تؤدي إلى حل المشكلات من خلال التعلم ، والاستبصار كترجمة للكلمة الإنكليزية (Insight) تعني الكشف بأجلى معانيه [٣٧] وقد قيل مثل ذلك عن الإبداع الشعري أو الفني في الرسم .

بل أن بعض المؤرخين تحدثوا عن ظهور السيد المسيح للفنان (ليوناردو دافنشي) لتسهيل رسم صورة له عندما أبدع لوحته العشاء الأخير .

هذا الكشف الصوفي يتصل أيضا باللذة الصوفية كما يسمونها عند تحقق إبداع الكشف والوصول إلى النتائج في كل مجالات العلوم فليس التجربة وحدها هي التي تؤدي إلى تحقق الفرضيات العلمية إذا لم تترافق بالصفاء العقلي والتأمل إضافة إلى الصفاء الروحي الذي يحول الباحث إلى حالة مكرسة للبحث ومنفصلة عن المحيط المعيق والمحيط .

٥- مدرسة الإمام الصادق والهرمسية :

يعتقد الدكتور محمد عابد الجابري - في هذا الجانب من بحثه النقدي - انه اكتشف شيئا يختلف عن سابقيه عندما وصفوا الإمام الصادق بالغنوصي - الهرمسية - والغنوصية وجهان لعملة واحدة ويستخدمان تقريبا ذات المفردات ، وهما من الفكر الإنساني الذي لا يعرف واضعه بالتحديد - كما رأينا - خليط من الفلسفات اليونانية والمشرقية الهندية والفارسية والكونفوشتيه ولكنهما معا لم يتفقا على التوحيد المطلق ، وان جاءت فكرة الألوهه وخلق الكون والكشف والاتصال والتطهر من العالم المادي وسيلة لهذا الاتصال بالخالق السامي ، مفردات تشترك فيها كل الأفكار الإنسانية التي تدرك حقيقة أن زمن حياة الإنسان القصيرة جدا شيء لا يقاس في خضم المطلق وبحره الذي ليس له آفاق .

يؤكد الجابري على وراثة التشيع والعرفان الإسلامي للهرمسية في أفكارها المتداولة ، وعادة ما يجري مقارنات بين الأفكار على الشكل التالي (على سبيل المثال بين أفكار ابن عربي

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المتصوف الأشهر وبين رؤيا هرمس التي يسجلها كاملة في كتابه) [٣٨] : يقول ابن عربي بدء الخلق : الهباء ، وأول موجود فيه : الحقيقة المحمدية الرحمانية ولا أين يحصرها لعدم التحيز .. ومما وجد ؟ وجد من الحقيقة المعلومة (لدى المتعالي) التي لا تتصف بالوجود ولا بالعدم – وقيم وجد ؟ في الهباء .. وعلى أي مثال وجد ؟ الصورة المعلومة في نفس الحق (على مثالها) –ولم وجد ؟ لإظهار الحقائق الإلهية – وما غايته ؟ التخليص من المزجة فيعرف كل عالم حظه من منشئه من غير امتزاج ، فغايته إظهار الحقائق ومعرفة أفلاك الأكبر من العالم، وهو ما عدا الإنسان في اصطلاح الجماعة ، والعالم الأصغر يعني الإنسان روح العالم ومعرفة علته وسببه وأفلاك مقاماته وحركاته وتفصيل طبقاته " (عن الفتوحات المكية ، ج١، ص١١٨) .

يقول الجابري : تجري المقارنة على النحو التالي :

– الهباء أو العماء عند ابن عربي ، هو في رؤيا هرمس : الكثيف النوراني الذي نزل إلى اسفل وشكل طينه رطبة ستتحول إلى مادة العالم .

– الحقيقة المحمدية عند ابن عربي يناظرها في رؤيا هرمس : الكلمة ، أي الابن الأول للمتعالي أي الإله الصانع ، وهو العقل الأول عند الإسماعيلية وعند ابن عربي نفسه .

الحقيقة المعلومة التي لا يتصف بالوجود ولا بالعدم كما يقول ابن عربي ويسميها الأعيان الثابتة هي العالم كما كان في العلم الإلهي قبل بدء الخلق ، وهي أيضا الصور المعلومة في نفس الحق ، التي منها صورة الحقيقة المحمدية أي العقل الأول ، وهذا العقل الأول وجد ، كما يصر ابن عربي لإظهار الحقائق الإلهية ، وبالتالي فهو صنع العالم ، المخرج للموجودات من حال وجودها بالقوة في العالم الإلهي إلى حال وجودها بالفعل في العالم ، أما التخليص من المزجة الذي هو غاية الخلق فهو تخليص النور من الظلمة حسب تعبير المانوية ، وتخليص النفس من البدن كما يقول المتصوفة .."

هذه المقارنة أوردتها بالنص لتبيان تعسف المقارنة ليس إلا : فليس الهباء أو العماء مرادفا للكثيف النوراني ، ولا الحقيقة المحمدية هي الكلمة أو الابن الأول للإله ، أما العقل الأول فهي مستخدمة في الفلسفة اليونانية الإشراقية ، ما في ذلك شك بتعبير ال (LOGUS) أما عندما يتطرق إلى الحقيقة المعلومة التي لا تتصف بالوجود أو العدم (وهو أحد ابرز مقولات علم الكلام الإسلامي في تعليل الخلق بشكل عام) فانه لا يورد أي نص مقابل في رؤيا هرمس . كلنا نلحظ التعسف البالغ في العبارة الأخيرة(التخليص من المزجة) عندما يقارنها بتخليص النور من الظلمة حسب تعبير المانوية . لان ابن عربي في تعليله للمزجة لم يستخدم النور والظلمة أبدا بل

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يستخدم ثنائيات إسلامية كالحساب والعذاب مقابل النعيم ، وهذه ثنائية لا تتصل بالنور والظلمة أبدا إلا من بعيد جداً . أما الثنائية المتعلقة بالروح والبدن فهي صلب العقيدة الإسلامية وفي القرآن الكريم ثنائيات عديدة يقف على رأسها الخير والشر ، الله والشيطان ، الفجور والتقوى ..الخ ومن هذه الثنائيات النور والظلمة بطبيعة الحال ، والحي والميت يقول تعالى: " يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل "أو" يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي " أما في قول ابن عربي عن تقدير غاية العالم " أي التخليص من المزجة وتمييز القبضتين حتى تنفرد هذه بعالمها وهذه بعالمها ، ومن أجل هذا كانت الرسل والأنبياء والأولياء " فليس من شك في أن عبارات كهذه تعبير رائع يتميز به ابن عربي بالذات رغم أن الفكرة بجوهرها إنسانية شمولية وهو لم يفارق في هذا التعليل جوهر الدين الإسلامي مطلقا ، فما هي الغاية من وجود الرسل والأنبياء والأولياء إلا هذه ، وهي هداية الناس من الظلمات إلى نور اليقين كما ورد في القرآن الكريم ، لكن ما يزعج الجابري حقا هو استخدام كلمة الأولياء والولاية في كلام ابن عربي عندما يتطابق الأخير مع التشيع في أن الولاية مستمرة رغم انقطاع النبوة والرسالة [٣٩] . ومعلوم أن العرفان بمجمله (كما أشرنا) هو كذلك ، ينبع من مدرسة أهل البيت ، وليس من غاية هذا البحث شرح أفكار ابن عربي لكن فشل الجابري في هرمسة ابن عربي بالغة الوضوح هنا .

نصل إلى سؤال يطرح ذاته . لماذا لم يجرؤ الجابري على اتهام رسول الله (ص) أو الأيديولوجيا الإسلامية (وبالأحرى الجانب الإلهي منها بالهرمسة) مادام قد اكتشف أفكارا جديدة ليست غنوصية .. ولماذا لم يتطرق إلى نهج البلاغة للإمام علي بن أبي طالب وهو منبع العرفان في الإسلام خاصة في حديثه عن الزهد والدنيا الفانية التي يرفض أن تغره ، واتجاه الإمام الأول في عرفانه نحو الآخرة رغم انه يقف على سده المنصب الأول في العالم الإسلامي أي(إمارة المؤمنين) ؟ .

ألا يبدو من السذاجة المفرطة أن نفسرعلميا التقاطعات الفكرية في التراث الإنساني ، بالسرقات الفكرية ، أو بالتقليد الفكري إلى درجة التطابق ، كما يفعل الجابري في بحثه الفضفاض الذي بين أيدينا ؟ يتهم المستشرقون الأوروبيون الإسلام عادة بالاقتباس أو بالنسج على منوال العهد القديم اليهودي . ويتهم مفكرون آخرون العهد القديم بالاقتباس من الحضارة البابلية التي عاش اليهود بين ظهرانيها زمنا طويلا ، وبخاصة شريعة حمورابي وقصة الطوفان وغيرهما . وقد بذل الكثير من الحبر لدحض أفكار كهذه تتعلق بالإسلام وسيرة الرسول (ص) ، لنصل إلى نتيجة مفادها أن التقاطعات الموجودة في الإيديولوجيا الإسلامية مع أفكار سابقة ، نابع من أن

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الإسلام عبر القرآن الكريم وأحاديث الرسول – وقبله المسيحية – أقر بأنه جاء ليكمل ويصحح ويختم ويضيف القرآن (ويختم). وبالسياق لم يكن ممكنا تحقيق الفصل الثقافي بين الأمم ومعرفة من الذي استقى من الآخر فعلا ، إذا علمنا أن الذين يشككون في نسبة نهج البلاغة إلى الإمام علي –على سبيل المثال – وجدوا في حديثه وخطبه عبارات تتطابق مع تراث يوناني أو هندي ، علما أن تراث الإمام (رض) سابق على الترجمة بالقطع ، ناهيك عن أمته رسول الله (ص) واتهام العرب الأميين له بأنه يأخذ من أساطير الأولين ، بمعنى أن ثقافة العهدين القديم والجديد كانا متداولين حتى في البادية .

كل هذا يجعل من محاولات المقارنة الساذجة التي يقوم بها الجابري أو غيره بين الإسلام وتراث العرفان والتوحيد السابق عليه مجرد سعى لبرهنة فرضيات مستحيلة اتجاه حقيقة أساسية هي أن التراث العربي الإسلامي مصبوغ تماما بالصبغة العربية الإسلامية وأنه تمكن من أسلمة وتعريب كل الأفكار المتداولة حتى قصص القرآن الموجودة بالنص في العهد القديم (يوسف) فإنها أنتجت بإبداع جديد لم يتناول إلا الفكرة المجردة لغاية محددة ويعرف أي باحث (والجابري من هذه الشريحة) أن فلكلور الإنسانية الذي يملأ الفضاء وينتقل بين الأمم كانسياب الماء والهواء ، يجرى التعرف على الأصالة والإبداع في طريقة استخدامه وصياغته وإعادة إنتاجه ، وإلا فهل يمكن اتهام الإسلام بأنه اقتبس فكرة التوحيد عن اليهودية ، أو أن اليهود اقتبسوها عن ديانات قديمة مصرية أو صينية أو هندية ،و رغم ذلك فعلينا الإقرار أن التوحيد الإسلامي توحيد خالص مطلق ومثله العرفان الإسلامي العربي، مختلف عن مثيلاته في توحيده المطلق هذا،علما أن أرسطو العقلاني الذي يضعه الجابري في مواجهة اللاعقل العرفاني الإسلامي ،كان يقول بتعدد الآلهة ، وألوهية الأفلاك ، لقد كان ابن بيئته اليونانية الوثنية ، حتى وهو يقدم البرهان عن المحرك الذي لا يتحرك .

كان من أبرز الأفكار التي وردت في الفكر الإنساني ، فكرة الصفوة من البشر ، أولئك الذين يتميزون بمقدرة وضعها الله فيهم ووكلهم للهداية أو الرسالة أو الإرشاد والتعليم. هذه الفكرة أخذت في طابعها الإسلامي وأحاديث الإمام جعفر بن محمد الصادق سلام الله عليه منحى له خصوصية الإيديولوجيا الإسلامية . ومنها ما نقله الجابري عن الكافي عن جعفر الصادق عن الإمام علي (رض) (والذي رأى فيه الجابري تجليا لرؤيا هرمس بالمقارنة) ما ملخصه "إن الله حين شاء تقدير الخليقة وذر البرية وإبداع المبدعات نصب الخلق في صورة كالهباء قبل دحو الأرض ورفع السماء وهو في انفراد ملكوته وتوحيد جبروته فأتاح نورا من نوره فلمع فنزع

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

قبسا من ضيائه فسطع ثم اجتمع النور وسط تلك الصورة الخفية فوافق ذلك صورة نبينا محمد (ص) " إلى أن يقول " وانصب أهل بيتك للهداية وأوتيتم من مكنون علمي ما لا يشكل عليهم دفين ولا يعيبهم خفي ، واجعلهم حجتي على بريتي والمنبهين على قدرتي ووحدانيتي ..ثم يقول الإمام الصادق" وانتقل النور إلى غرائزنا ولمع في أئمتنا فنحن أنوار السماء وأنوار الأرض فينا النجاة ولنا مكنون العلم .."(٤٠).

فكيف يستنتج الجابري الجذور الهرمسية في حديث كهذا؟ يقول : تكلم الله له تعادل كلمته لسطح الأرض وتموج الماء ورفع السماء من اجله لتنصيبه للهداية ، خلق الكون وبسط الزمان وإبداع الملائكة وقرن توحيده بنبوة محمد ..الخ هي عناصر تطابق على التوالي العناصر التالية في الميتافيزيقا الهرمسية : الإله المتعالي (الكلمة) أو العقل الأول (الهباء) الطبيعة ، الإنسان السماوي (الذي يجعل منه النص المذكور آدم بينما يجعل من العقل الأول محمدا) ظهور العناصر الأربعة ..الخ ، أما الهداية التي خص الله بها أهل بيت النبي فهي تذكرنا بالهداية التي الزم هرمس نفسه القيام بها بعد أن رأى ما رأى في رؤياه الكشفية .."

والحقيقية أنني بعد التدقيق بين الرؤية المذكورة والنص الوارد في الكافي عن الإمام علي وجعفر الصادق رضي الله عنهما لم أجد من التقاطعات ما يؤدي إلى أي تطابق في المضمون كما فعل الجابري وهو يلوي عنق النص ليستنتج منه التطابق ، يستحيل الاستنتاج بين حديث الإمام علي على أن خلق محمد هو خلق العقل الأول ، لان المقصود بمادة العقل الأول هو الله في الفلسفة اليونانية ، أما في مسألة الهداية واتصالها بالصفوة ، فقد الزم هرمس نفسه بالهداية بعد الرؤيا للتصدى لمهمة أهله لها انه اكتشف الحقيقة بالرؤيا .. أما أهل بيت النبي فقد تولوا المهمة بالوصاية من الرسول (ص) ولم يدعوا غير ذلك مطلقا ، وبكل تأكيد فلا يمكن للرسول أن يوصي إلا بأمر من الله ، ولا يوصي إلا لا ناس من جنس طبيعته المتميزة القادرة على الهداية وتولي المهمة الصعبة أكانوا أقرباء له أم لم يكونوا .. فالثابت انه أوصى للإمام علي ، في أحاديث كثيرة مثيرة للجدل ولكنها موجودة في الصحاح شئنا أم أبينا ، والقرآن طالب بالمودة لأولي القربى من النبي (ص) " قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة في القربى "الشورى(٢٣) وتلك جدلية السنة والشيعة المستقاة من القرآن والحديث ، فما علاقة الهرمسية بها ؟ علما أن كلمة الهباء لم ترد مطلقا في رؤيا هرمس التي تتسم من حيث الصياغة والمضمون بتعددية الصناع والآلهة ، وليس منها التوحيد الإسلامي حتى النوايا (٤١) فحديث الإمام الصادق لم يذكر الكلمة أبدا ولا العقل الأول ولا الإنسان السماوي ، أما العناصر الأربعة فقد كانت بديهية علمية متداولة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ولازالت حتى الآن .

في محاولته لتعليل معرفة الإمام الصادق بالكيمياء وغيرها من العلوم يورد الجابري عن (فيستوجيير) نصوصا هرمسية عن الاتصال بالله وتصفية النفس ومعرفة الأصباغ الرفيعة التي تحول المعادن الخسيسة إلى ذهب (أو ما يرادف اكتشاف حجر الفلاسفة بالمصطلح القديم) وهنا يقود هذا إلى أن اتصال الإمام بالفكر الهرمسي أدى به إلى معرفة علم الكيمياء (والحقيقة انه لم يشر إلى الإمام الصادق مباشرة وإن لمح إلى ذلك بالتبعية الفكرية) وبما أن الكيمياء من العلوم الدقيقة المتصلة بالعقل مباشرة وبالتجريب ، وقد ثبت أن الكيميائي الشهير جابر بن حيان تتلمذ على الصادق بها وكتب رسائله الشهيرة فان ذلك ، وقد أدى إلى التشوش لدى الجابري ، لم يجد من مخرج منه إلا من خلال النصوص الهرمسية ، علما أن المتصوفة الذين مارسوا الصفاء الروحي والكشف لم يصبحوا علماء في الكيمياء رغم ذلك ، وكم يبدو تعليل كهذا ساذجا في محاولته تعليل اتصاف الإمام الصادق بممارسة علوم لها صفة التجريبية والعقلانية .

٦- جدلية التقدم والتخلف في الحضارة العربية الإسلامية.

يحصر الجابري أسباب تخلف الأمة العربية وبدء عصر الانحطاط بعنصرين أساسيين:

الأول :-كما رأينا- وهو الأهم يتعلق باستقالة العقل (كما تحلو له التسمية) في تيارات الفكر العربي المحددة باثنتين : المؤسسة الشيعية المتسم بتراجع منهجها الثوري بتكامل الإنجاز العقلي لديها نظرية وتطبيقا ، والمؤسسة السنية بسيطرة اللاعقلانية على بنيتها النظرية التي كانت عقلانية وسيادة الجمود والمحافظة عليها .

الثاني: الغزوات الخارجية ، وقد حددها بثلاث : المغولية من الشرق والصليبية من الغرب ومعها تدمير الدولة الاندلسية النهائي وانتصار المسيحية الغازية وطرد العرب من هناك .

هناك أسباب كثيرة لتراجع الحضارة الإسلامية عن الانتاج ، والجابري يقع في فخ تقسيم العصور - الذي يرفضه - في هذه الحضارة فهو في مقدماته كتاب تكوين العقل العربي متهم هذا العقل بأنه في تعامله مع الزمن الثقافي لا يخضع لمقاييس الوقت والتوقيت الطبيعي والسياسي والاجتماعي لأن ما يميز الثقافة هو زمنها ، وزمن الثقافة العربية هو زمن العقل العربي مادام أبطال هذه الثقافة خالدون يستمر تأثيرهم الثقافي أبدا [٥٠]

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

على هذا القياس كيف يمكن تعليل عصر الانحطاط مادام هنـاك نـهوض كونـه أولئـك الخالدون الذين بهت تأثيرهم وتراجع في زمن ما مترافقا بتراجع مكونات العقـل ذاتـه وسـيادة الجمود والمحافظة على مؤسسات الإنتاج الفكري بدءا من القرن السابع الهجري ، فلمـاذا أدخـل الجابري مؤسسة التشيع الأمامي الاثنى عشري في المسؤولية ؟

لكل امبراطوريات العالم بداية ونهاية ، وقد تميزت الإمبراطوريـة الإسـلامية بانحسـار النظام وخلود الأيديولوجيا وفي المقابل تهشمت في أوروبا الإمبراطوريات والأيديولوجيات معـا ولكن بزغت التكنولوجيا التي مكنت التقدم العلمي من بسط سيطرة الأدوات الحديثة علـى الأمـم المتخلفة حقبة من الزمن وسيادة عصر الاستعمار فهل أدت المحافظة الفكريـة فـي مؤسسـات السلطة السنية وتفجر الثورات التي احتدمت تحت شـعارات شـيعية (مـن ضمنـها العدالـة الاجتماعية) إلى تحطيم السلطة والعقل العربي الإسلامي معا (كما ينظر الجابري) ؟ لـم تكـون مؤسسة الشيعة الأمامية دولتها أبدا ، حتى والدولة البويهية متهمة بكونها تلـك الدولـة . فـي المغرب نهضت الدولة الفاطمية وكان لها إنجازات حضارية كبيرة باعتراف المؤرخين [٤١] لكنـها لم تعمر طويلا رغم دورها المهدئ لثورات المشرق ضد السلطة العباسية المتآكلة ، ولم تكن دولة اثنى عشرية .

هذا العصر المنحدر للإمبراطورية الإسلامية تمكن من تحقيق إنجازين هـامين ، وهمـا هزيمة المغول والصليبية والحفاظ على دولة الأيديولوجيا الإسلامية على الأقل أما علـى صعيـد الإنجازات الأخرى فان إصدار حكم قيمة لا يمكن أن تتمتع بالاطلاقية ، فـهو يختلـط بعنـاصر مشوشة يغلب على مصداقيتها أن العرب وقعوا بالكامل تحت السيطرة التركية ، التـي سـاهمت بالمطلق في سحق الحضارة العربية لمدة أربعة قرون ، فهل يمكن تحميل العقل العربي المسؤولية ؟

هنا يجدر بنا التوقف مع المصطلح الذي استخدمه الجابري بداية وهو (العقل العربـي) . بالقطع لم يكن هناك شيء اسمه القومية العربية المتميزة في إطار الإمبراطورية المترامية ، ذلـك أن المسألة القومية مفهوم من ولادات القرن التاسع عشر وكانت من إصدارات الحضارة الأوربيـة وظلت ولادتها من أكثرها إثارة للجدل وحتى هذه اللحظة .

يحلو لبعض دارسي التراث أن يحملوا الإمام الغزالي رحمه الله مسؤولية بدء الانحطـاط ، عندما حارب الفلسفة وعلم الكلام وأعلن الولاء أو ضرورة الولاء للخلافة العباسية رمزا لوحـدة المسلمين ، ولكن تحميل تيار فكري واحد مسؤولية التخلف فيه الكثير من التعسـف ، فقـد بـدأ

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ضغط العناصر الخارجية على الدولة الإسلامية يشتد ، وساهمت عناصر التحطيم الداخلية المتعلقة بطبيعة السلطة المركزية المهشمة والبعيدة عن العدالة في توزيع الثروة وإتاحة المجال للحرية الفكرية التي ساهمت إلى حد ما في نهضة الدولة العربية السابقة – تلك السلطة المركزية التي لم يكن همها إلا محاربة كل ما هو جديد ، وخاصة تيارات التشيع التي احتضنت القوى الناهضة في الدولة الإسلامية و(المستضعفين) وجاءت السيطرة التركية المتخلفة أخيرا لتسدد الضربة الأخيرة رغم توحيدها للعالم الإسلامي شكليا فقد نهضت تركيا على حساب الأطراف الأخرى للإمبراطورية ، وخاضت حروبها المذهبية بعد ذلك ضد الشرق المتشيع ، وبدا أن العنصر العربي وطن نفسه على قبول هذا المصير المرير الذي امتد حتى القرن العشرين .

لماذا لم يحاول الباحث الجابري بذل جهد كبير عناء في حصر عناصر التخلف العربي المتعددة التي لا يمكن حصرها في سطوة التراث على العقل ودفعه إلى اللاعقلنة التي أدت إلى تخلف تقني في حين كانت أوروبا تتقدم بوثائر عالية بينما توقف العرب عن ملاحقة ركب التقدم المتسارع الذي لا يرحم المتوقفين ؟ ذاك سؤال لا يجد قارئ أبحاثه أي جواب مقنع له .. وظلت المؤسسة التي أنشأها الإمام جعفر الصادق على تماسكها المثير للإعجاب بل وتوسعها كاتباع حتى وصلت إلى مئات الملايين رغم كل عوامل الإعاقة والاضطهاد المذهبي ، ولن يكون الحل في إطلاق توصيفات الإدانة العنصرية والمطالبة باتباع النهج الذي أدى إلى النهضة الأوربية والمتمثل بتحطيم البنى الفوقية المتمثلة بالأيديولوجيا الإسلامية للأمة حتى تستطيع تحرير العقل العربي كي يلحق بالركب ، فلا يمكن أن تتشابه عوامل نهضة الأمم وليس من مهمة هذه العجالة تقديم الحلول.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

هوامش

(١) محمد عابد الجابري ، تكوين العقل العربي ، مركز دراسات الوحدة العربية ، ط ٣، بيروت ١٩٨٨ ص٢٧.

(٢) م .س ،ص٢٩.

(٣) م .س ، ص٣٠.

(٤) م .س ، ص٣١.

(٥) م .س ، ص١٥.

(٦) م .س ، ص٣٣

(٧) م .س ، ص٢٠-٥٢

(٨) م .س ، ص٤٢

(٩) م .س ، ص٢٢٥

(١٠) م .س نفس الصفحة .

* الهرمسية. (راجع الفصل الأول بحث علم الكلام الاسلامي).

(١١) محمد عابد الجابري ، بنية العقل العربي ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ١٩٨٦ص٢٥١.

(١٢) م .س ، ص٢٥٢ .

(١٣) م .س ، ص٢٩٥.

(١٤) م .س ، ص٣١٧.

(١٥) م .س ، ص٣٢١.

(١٦)م .س ، ص٣٢٣/** يستند الجابري على الأحاديث من مصادر إماميه أهمها : أصول الكافي (محمد بن يعقوب الكليني الصادر في طهران ١٢٧٨ هـ ، وعقائد الشيعة الأمامية (محمد رضا المظفر ، أما بالنسبة للإسماعيلية فجاء كتاب : اختلاف أصول المذاهب تحقيق عارف تامر ، ودعائم الإسلام للقاضي النعمان واختلاف أصول المذاهب لنفس المؤلف ، في أصول الكافي عاد إلى الصفحات ٦٥-١٥٧-٥٤ وأخذ أيضا حديثا عن المسعودي في مروج الذهب تحقيق اسعد داغر ، بيروت دار الأندلس ص٣٨-٣٩.

(١٧) م .س ، ص٣٢٤ .

(١٨) م .س ، ص٣٢٧ .

(١٩) م .س ، ص٣٣١.

(٢٠) م .س ، ص٣٣٨.

(٢١) م .س ، ص٣٤٣.

*** الغنوصية.(راجع الفصل الأول بحث علم الكلام الاسلامي) .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

(٢٢) يعتبر الجابري أن معرفة الإمام الصادق لعلم الكيمياء يأتي من طبيعة هرمسية أيضاً تبعاً للنص الذي يورده نقلا عن الفيلسوف الفرنسي (مينستوجيير) في كتابه عن الهرمسية كما يلي " على أساس هذا التصور تبنى العلوم السرية الهرمسية وفي مقدمتها الكيمياء فبمعرفة كيفية التجاذب والتنافر في المعادن يمكن تحويل الخسيس منها إلى ذهب بواسطة الصنعة والتبذير .. والتطهر للنفس فهناك ترابط عضوي بين الكيمياء التصوف (..) وهكذا فلمعرفة أسرار الكيمياء لابد من أن يجد الإنسان الله أولا ولكي يجد الله لابد له من الرجوع إلى نفسه وإسكات شهواته (..) أذنا فبمعرفة الإنسان لنفسه يعرف الله وبمعرفته لله يعرف الأصباغ الرفيعة التي تحول المعادن الخسيسة إلى ذهب ، لان المعرفة كل المعرفة تتلخص بان من يتصل بالله يغرف من نفس المنبع الذي منه الحقيقة ..." ويتابع الجابري في كتابيه تكوين العقل العربي ص١٨٣ قائلا " إن دمج العلم في الدين والدين في العلم علامة بارزة من العلامات التي تكشف فيها العقل لمستقبل نفسه وهويته ، انه يطيب أن يعقل عن الله حتى تلك الأمور التي تركها الله للإنسان كي يعقلها مباشرة عن الطبيعة فيسخرها لمصلحته. .."

(٢٣) تكوين العقل العربي ، م.س ص٣٤٨-٣٤٩ . (٢٤)م .س ص٣٤٩.

(٢٤) راجع ابن النديم في الفهرست (أبو الفرج محمد بن اسحق ابن النديم)

(٢٥) راجع : المؤسسات الدينية الإسلامية والكيان الصهيوني : زهير غزاوي ، دار الغدير بيروت ١٩٩٦، ص١٠٦.

(٢٦) احمد أمين ، ضحى الإسلام ج ٣.

(٢٧) راجع الملل والنحل (للشهرستاني) الفصل الأول .

(٢٨) راجع عبد الله الغريفي ، أحاديث وكلمات حول الإمام المنتظر ، مكتبة الهداية الإسلامية ١٩٨٨.

(٢٩) نص الحديث عن صحيح مسلم كما يلي : عن صحيح مسلم عن رسول الله (ص) قال : فبينما هو كذلك " أي الدجال إذ يبعث الله عيسى المسيح بن مريم فينزل من المنارة البيضاء بين مهرودتين فيطلبه بباب لدّ فيقتله ".

**** اثبت الباحث جورج طرابيش سوءا استخدام الجابري للمراجع الفرنسية في مسألة العقل في كتابه الشهير(نقد العقل العربي).

(٣١) فخر الدين الرازي ، محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين بين العلماء والمتكلمين ، مراجعة طه سعد ، دار الكتاب العربي بيروت ١٩٨٤.

(٣٢) علي سامي النشار ، نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام ، دار المعارف ١٩٧٧، ط٧ القاهرة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ص١٠٦ نقلا عن عقيدة الشيعة لدونالدسون.

(٣٣) أحاديث وكلمات حول الإمام المنتظر ، مرجع سابق ص٨٢.

(٣٤) راجع محاورة فيدون تأليف أفلاطون ولا ادري إن كانت مترجمة إلى العربية.

(٣٥)راجع كتابنا ، نمو القيم والاتجاهات عند طفل ما قبل المدرسة ، فصل الفرويدوية ، دار المبتدأ بيروت ١٩٩٣.

(٣٦) روبرت وودورث ، مدارس علم النفس المعاصرة ، ترجمة كمال سوقي ، دار المعارف بمصر ، جماعة علم النفس التكاملي ، القاهرة ١٩٤٨ ، ص١٩٤.

(٣٧) يعني الاستبصار أن الإنسان عندما سعى لحل مشكلة ما ، وفي خلال محاولاته المتكررة والفاشلة لحل المشكلة يصل فجأة إلى الحل دون مقدمات تتعلق بالمحاولة والخطأ والصواب ، وقد سموه بالكشف معللين ذلك بتراكم المحاولات الصائبة التي أدت إلى الوصول للحل، وسد فجوات العقل .

(٣٨) بنية العقل الغربي م.س ،ص٢٦٣ وصفحة ٣٦٠

(٣٩) م.س ،ص ٣٦١

(٤٠) م.س ،ص٣٢٨.

(٤١) في رؤيا هرمس ما يلي " وبما أن العقل الإله ذكر وأنثى ، حياة ونور فقد أوجد بكلمة منه عقلانيات صانعا هو اله النار والنفس فصنع المدبرات السبع التي تغلف بدوائرها العالم الحسي ويسمى تدبيرها الغدر ، وفي الحين انطلقت كلمة الله وتحدث مع العقل الصانع لأنهما من جوهر واحد تاركة العناصر تنزل إلى اسفل صوب الناحية التي صارت خاصة بالطبيعة التي صنعت الآن ولذلك صارت العناصر السفلى من الطبيعة متروكة لنفسها محروقة من العقل فبقيت مجرد مادة .."

(٥٠) تكوين العقل الغربي ، م.س ،ص٣٧.

(٥١) حسن الأمين ، صلاح الدين الأيوبي بين العباسيين والفاطميين والصليبيين ، دار الجديد ، بيروت ، بلا تاريخ .

* يخالف الجابري هنا مقولات إسلامية أساسية تتعلق بأن فكرة الله تجريبية يقود إليها البحث العقلي ، بينما اعتبر كانط مثلا وهو ممثل الفلسفة الأوروبية الأبرز أن الله فكرة موجودة في بنية العقل ذاته . لهذا يمكن الجزم أن الجابري يتجاهل الحقائق أو يعكسها تبعا لأهوائه .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

التيار السلفي المصري ودراسة الشيعة الامامية من خلال الإمام جعفر الصادق (ع) " مؤسسة الأزهر نموذجا "

مدخل

ربما كان أفضل من عرف السلفية دون الدخول في التفاصيل الشهيرة عنها هو عبد الرحمن بن خلدون في مقدمته حين قال " هذا هو الذي ينبغي أن تحمل عليه أفعال السلف من الصحابة والتابعين ، منهم خيار الأمة ، وإذا جعلناهم عرضة للقدح فم الذي يختص بالعدالة ؟ والنبي (ص) يقول خير الناس قربى ثم الذين يلونهم مرتين أو ثلاثا ثم يفشو الكذب (...) فإياك أن تعود نفسك أو لسانك التعرض لأحد منهم ولا تشوش قلبك بالريب في شيء مما وقع منهم والتمس لهم مذاهب الحق وطرقه .."[1].

إن ظاهر النص ينحو إلى التأكيد على رفض التعامل مع أي من السلف الذين عاصروا الرسول (ص) بأي شكل من أشكال النقد ، بحيث نضعهم في مرتبة العدالة المطلقة والعصمة أي ببساطة في مرتبة الرسالة ذاتها ، وتتلاقى في ذلك التيارات السلفية المعروفة ، ومنها التيار السلفي المصري ممثلا بالشيخ المرحوم محمد أبو زهرة ، مع اختلاف بالدرجة بين هذا التيار أو ذاك ، لكن هذا التيار بالذات يتسم بالتناقض المتجذر في خطابه الديني ، بين تقديسه لرموز آل بيت النبي (ص) وإدانة الأسرة الأموية ، وبين رفضه للتشيع جملة وتفصيلاً ، وحتى عندما فسرته ظروف تاريخية لمرحلة قصية في نهاية عقد الخمسينات وبداية عقد الستينات من هذا القرن على دراسة موسعة لمذهب الإمام الصادق .

فقد جاء الكتاب المعتمد في الأزهر للتدريس [3] بغاية التقريب بين المذاهب الإسلامية والاعتراف بالمذهب الجعفري ، جاء في إطار من التعسف والتناقض وابتعاد عن العلمية وإثارة للجدل والردود بحيث استحق أن يكون موضوعا لبحث مستقل عنه في سبيل التعريف بالتيار الذي تقوده مؤسسة الأزهر في مواجهة التشيع .

ولا غنى عن القول أن معتنقي التشيع في الدولة المصرية ، وبدعم من الأزهر الآن ، يتعرضون لأقسى حملة من القمع تفوق مثيلاتها في أية بقعة من العالم . [2]

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تطور دراسة المذهب الجعفري عند أبي زهرة:

تعنى دراسة الشيعة الأمامية واقعيا التعامل مع سيرة وفكر الإمام جعفر بن محمد الصادق (رض) من خلال تراث ضخم من المدونات المنقولة عنه ، فعنه تتفرع كل السواقي وإليه تصل كل الدروب في نهاية المطاف ، ولان في الإمام بالذات يتبدى عصر التدوين في صدر الإسلام بداية القرن الهجري الثاني ، ولأنه سلام الله عليه أملى الأصول الأربعمائة الشهيرة في الفقه ولان الكتب الأربعة المعتمدة لدى الأمامية تنهل من فكره [٤] فقد اتجه الدكتور أبو زهرة إليه مباشرة مكملا – ولو متأخرا – سلسلته حول حياة أئمة المذاهب الإسلامية جميعا " الشافعي – مالك – ابن حنبل – أبو حنيفة – وابن تيميه "

في جميع مؤلفاته تلك دأب الشيخ على تقديم التشيع ، عند دراسته للفرق الإسلامية في صدر الإسلام ، محددا كغيره موقعه خارج إطار ما اصطلح عليه تاريخيا بتيار (السنة) ، لكنه عندما كتب عن الإمام الصادق فقد بدا ظاهريا انه يسعى إلى تحديد ملامح مذهب خامس يجوز التقيد به وان من خارج الإطار .

إن متابع دراسات الشيخ الراحل لا يفوته ملاحظة هذا التطور في مواقف المؤسسة الأزهرية تجاه الأمامية ، ولهذا اعتبر كتابه عن الإمام الصادق في قمة الاعتدال النسبي – رغم انه لم يكن كذلك بإطلاق .

في بداياته البحثية شن أبو زهرة على الشيعة عموما والأمامية خصوصا حملة عنيفة أخرجتهم من الإسلام ، وعندما كتب عن الإمام مالك [٥]ابن المدينة المنورة تعمد أن يتجاهل كليا وجود الإمام الصادق فيها ، معاصرا لمالك واستاذا له ، ولعله بدا اكثر تشددا في كتابه عن الإمام الشافعي [٦] في مواجهة الشيعة عندما تبنى آراء مجموعة من المستشرقين الكبار ومعهم (الشهرستاني) في كتابه الأشهر(الملل والنحل)، دون تحفظ أو مناقشة علمية يقول " ذهب فلهاوزن إلى أن العقيدة الشيعية تنبعث من اليهودية اكثر مما تنبعث من الفارسية مستدلا بأن مؤسسها عبد الله بن سبأ اليهودي ، أما دوزي فيميل إلى أن أصلها فارسي ، فالعرب تدين بالحرية والفرس يدينون بالملك والوراثة في البيت المالك ولا يعرفون معنى انتخاب خليفة" [٧] وعندما اقتبس عن (الشهرستاني) فانه اختارا نصا يشكك بأحاديث صحيحة للرسول (ص) حين